

سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

المنفذ من الضلال

لجدة الإسلام الفرزالي

مع أبحاث مستفيضة عن : « قضية التصوف »

بقلم

الدكتور عبد الحكيم محمود

رئيس قسم التوحيد والفلسفة بجامعة الأزهر

الطبعة الثالثة

مزيدة ومنقحة

يناير ١٩٦٢

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مطبعة شماره ۲۹ شارع آبریش

تصدير الطبعة الأولى

باسم الله نبتدىء هذه السلسلة فى الدراسات الفلسفية والأخلاقية ،
ومنه نطلب العون والتوفيق لتحقيق الهدف الذى نرمى إليه ، وهو العمل
على نشر هذا النوع من الثقافة الذى لم يحظ بالعناية والتقدير ، على النحو
الذى ينبغى أن يحظى به .

وما يدعو إلى الأمل فى نجاح هذه المحاولة أننا نبذلها فى الوقت الذى
أخذ فيه أبناء العربية يبعثون تراثهم الفكرى الضخم ، ويضيفون إليه الجديد
ويطلعون على ما أنتجته قرآنح الفلاسفة فى مختلف العصور والأمم .

إن حركة البحث التى بدأت لدينا فى أواخر القرن التاسع عشر أصبحت
اليوم قوية الدعائم والأسس . وهى تؤذن أنها ستقلب نهضة شاملة ، تؤتى
أطيب ثمارها ، فقد بدأت الثقافة العربية تسلك سبلا شتى ، وتطرق آفاقاً
مختلفة . وبعد أن كانت قاصرة — فى أول أمرها — على الدراسات
الأدبية التى كانت تجرد فيها من اليسر أكثر مما تلقاه من عناء ، اتجهت إلى
الناحيتين : العلمية ، والعملية ، واستطاعت أن تسهم بجانب لا بأس به فى
نهضتنا الكبرى ، ولسكن تاريخ الفكر البشرى يذكرنا دائماً بأن الفلسفة
والأخلاق كانتا — وما تزالان — رمزاً لكل نهضة ، وتاجاً لكل بحث
علمى ، أو عملى ، ونبراساً يقود الباحثين أينما سلكوا ؛ فليست الفلسفة
— كما يظن هؤلاء الذين لا تربطهم بها صلة محبة ومودة — نوعاً من الترف
العقلى ، بل هى عنصر جوهرى فى تكوين كل ثقافة قومية بطابعها الخاص .
وهى سبيل إلى تيسير فهم الثقافات القومية الأخرى . وليست فائدة فهم
وجهة نظر الآخرين بالامر الذى لا يحفل به ؛ إذ للفكر العالمى فى عصرنا

الحاضر روافد شتى تنتهى بأن تفيض في كل مكان ، فتمحو الفروق ، وتنسف الحدود ، وتؤلف بين القلوب ، وتشحذ الهمم لإدراك ما تهفو إليه الإنسانية ، التي ما برحت تتلمس طريقها نحو الخير . والعزلة الفكرية — في رأينا — أسوأ أثراً لدى الأمم منها لدى الأفراد . وهي دليل الجمود واليأس من كل إصلاح . وعلى الرغم من أن الأمة العربية لا يمكن أن توصف بأنها بمعزل عن التيارات الفكرية الكبرى ، فإنها في حاجة إلى نفر يذكرونها بكبار أبنائها الذين وجهوا الثقافة العالمية عصوراً طويلة — إن في الشرق وإن في الغرب . وهي لا تضيق ، فيما نعتقد ، بمن يأخذ بيدها ، ليطلعها على روائع الفكر لدى فلاسفتها ، وفلاسفة غيرها من الأمر .

ونحن لا ندعى لأنفسنا أننا سنسد هذا الفراغ وحدنا . فما أبعد ذلك عن تفكيرنا ، لأننا نعترف ، دون تواضع كاذب ، أننا إن نقوم إلا بنصيب ضئيل من الجهود الضخمة ، الذي يجب أن يبذل . ولسكننا سنعمل ما استطعنا على إحياء التراث العربي الإسلامي ، وعلى التقديم بين يديه ، في ضوء ما أدت إليه الدراسات العلمية والفلسفية ، متوخين السهولة في العرض ، مع الدقة في التحليل والنقد .

وستتسع هذه السلسلة أيضاً لإنتاج كبار الكتاب الفلاسفة ، في كل أمة ، وفي كل عصر ، حتى تزود المكتبة العربية بمختلف الآثار الفكرية ، تأليفاً وترجمة : في التصوف ، والدراسات النفسية ، والأخلاقية ، والفلسفية وستكون هذه السلسلة عقداً نسالك فيه درر الشرق والغرب .

وسيكون شعارها النهوض بمستوى هذه الثقافة لدى قراء العربية ، في غير عصر ، والعمل على فتح سبيل جديدة للتفكير الذي يرغب دائماً في المعرفة الحقة .

ويسعدنا أن نفتتح هذا الجهود المتواضع بكتاب لأشهر مفكرى

الإسلام وأجلهم قدراً ، وأبعدهم ذكراً ، وهو كتاب « المنقذ من الضلال » للإمام « الغزالي » ، تصحبه مقدمة بارعة في منطق التصوف ، للدكتور « عبد الحلیم محمود » ، أستاذ الفلسفة ، بكلية أصول الدين ، بالجامع الأزهر وهو من خيرة شبان^(١) فلاسفتنا ، الذين جمعوا — في عمق وفهم — بين الثقافة الإسلامية الخالصة ، والثقافة الأوروبية الحديثة .

ونسأل الله التوفيق ، في أداء رسالة نعتقد أنها دين في عنقنا نحو هذه الأمة : في ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها .

محمود قاسم

٢١ ربيع الأول سنة ١٣٧٢

الموافق ٩ ديسمبر سنة ١٩٥٢

(١) لم يعد فيما أظن الوصف بأني شاب ينطبق على حالتي الراهنة : فقد اشتعل الرأس شيباً ، وتحددت الآمال والمطامح وكثر التفكير في الآخرة ، وقل التفكير في الدنيا ونسأل الله حسن الختام ، ونشكره ونحمده سبحانه على أيام وسنين تقضت في كنفه ورعايته وفضله ونعمائه .

مُتَدَمَةٌ
فِي
قَضِيَّةِ التَّصُوفِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا

البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث

لا يمكننا أن نحدد بالضبط تاريخ نشأة الأبحاث في المغيبات ، ولكننا قد لا نعدو الصواب ، إذا قلنا : إنها نشأت منذ نشأة الإنسان ، على ظهر البسيطة .

وقد لا نعدو الصواب أيضاً ، إذا قلنا : إنها منذ النشأة الأولى ، قد اختلفت ، فيما يتعلق بمنهج البحث ، واختلفت فيما يتعلق بالنتيجة .

وقد كان الاختلاف شاملاً لكل المساتير : فمن إنكار مطلق للألوهية ، وللروح ، إلى إيمان مطلق عام ، يغرق في الوهم ، ويبعد في الضلال ، حتى يصل إلى التخريف بأوسع معانيه .

وبين هذا وذاك ، مذاهب لا يحصها العد : فمن تشبيه مطلق ، إلى تنزيه مطلق إلى تشبيه يشوبه التنزيه أو تنزيه مشرب بالتشبيه ، ومن حلول . إلى اتحاد ، ومن وحدة الوجود ، إلى التفرقة بين العابد والمعبود ، إلى مذاهب يبعث اختلافها الدوار في الرأس ، وتبعث براهينها الشك في جميعها ، إلا من عصم ربي ، فوفقه إلى طريق الرشاد .

أجل : إلا من عصم ربي ؛ ذلك أن اتباع الطريق السوى ، توفيق من الله ، وليس هو من اكتساب العبد ؛ فالحلول — مثلاً — عقيدة راسخة ، استساعتها البيئات المسيحية — وفيها من أساطين المفكرين ما لا يحصى — منذ ألفين من السنين . وقد تسابقت العقول في البرهنة عليها ، حتى أقامت على دعائم فلسفية ، منطقية ، خلبت عقول الملايين من بني البشر ، فآمنوا بها ، وضخوا في سبيلها .

والتشبيه قد برهن عليه ذروه ، براهين عقلية ، وأخرى نقلية .
ووحدة الوجود ، لها أنصارها المتحمسون لها ، الذين يرون أن ماعداها
لغو ، أو ضلال .

ولو درسنا تاريخ العقائد لوجدنا أن كل فرقة تستند إلى منطق ، وكل
عقيدة قد سادت في فترة من الزمن ، أو سادت في بيئة من البيئات . وكل
بيئة تعتقد أن مالمديها خير ما أخرج للناس .

أما الصراع بين أدلة الفرق المختلفة ، فهو صراع دام ، تهافت فيه الأدلة ،
مشخنة بالجرأح ، ولسكنها تأبى ، في غطرسة ، أن تعترف بالهزيمة ، فتأخذ
في تضميم جراحها ، لتعاود النزال من جديد ، ولتنهار - أيضاً - من جديد .
ولو سرنا حقيقة في المنطق إلى غايته ، لو صلنا إلى الحيرة ، والشك ،
في كل ما أنتجته العقول الإنسانية من آراء .

* * *

ومع ذلك ، فاليقين موجود ، ومهما حاولت أن تنكر إشراق الشمس
- إذا كانت مشرقة - فسوف لا يستجيب إليك شخص ما ، وسوف
لا تستجيب أنت إلى نفسك . وهكذا الأمر في جميع المحسوسات .
بيد أن ذلك ميدان ، والمغيبات ميدان آخر .

ربما يقال إنه من الطبيعي : أن يكون الحس طريق المعرفة المادية ،
وأن يكون العقل طريق المعرفة العقلية . وما دامت المغيبات من المعقولات ،
فالطريق إلى معرفتها ، إذا إنما هو العقل ، وما دمننا قد وثقنا بالحس
في معرفة الماديات ، فلنلتزم الوثوق بالعقل في معرفة المغيبات

هذا النمط من التفكير يبدو موقفاً ، ولسكنه محض سفسطة : فالتصور -
وهو أساس المعقولات - لا يقوم إلا على الحس ، وإذا جردته من المدركات

الحسية، فقد أزلتها إزالة لا تترك له من أثر . ومهما أغرق الشعراء في الخيال، ومهما أبعثوا في الوهم، فابتدعاتهم، وصورهم المبتكرة، منتزعة من الواقع . والاختراع : تنسيق للمحسوس على نمط جديد، ولا فرق مطلقاً، بين ذهن العبقري الفذ، وذهن الجاهل الغبي، في أن كلاهما يعتمد على الواقع المحسوس، في تصوّره، وفي تخيله .

والصورة المبتكرة - من حيث عناصرها - أسطورة من الأساطير، أو وهم من الأوهام التي لا وجود لها . وما دام الأمر كذلك، فالتفكير المجرد عن المحسوسات معدوم^(١) . وما دامت المساتير لا شأن لها بالحس، فكل تفكير فيها لا يؤدي إلى نتيجة .

(١) منذ سنوات كتبت بحثاً عن التخيل، أقتطف منه ما يلي، توضيحاً لفكرة ارتباط التصور والتخيل بالمحسوسات .

١ - الخيال والواقع : إذا نظرنا إلى العناصر التي تكون مادة التخيل، فإننا لا نجد فيها شيئاً جديداً؛ وكل ما للتخيل لا يعدو أن يكون تنسيقاً : فصورة أبي الهول هي وحدها الجديدة، أما ما تكون منه - نعتي جسم الأسد ورأس الإنسان - فليس ذلك بجديد .

وكل ما لم يخضع لحواس الإنسان فإنه لا يمكن للإنسان أن يتخيله إلا إذا شبهه بما وقع تحت حواسه، وما تصور الناس الغول والعنقاء والجن والشياطين إلا على مثال ما رأوا .

وحيثما أراد المسيحيون أن يصوروا جبريل، صوروه على صورة رجل جناحان .

وتورع جمهور المسلمين فيما يتعلق بالله فقالوا : « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، إذ أن كل ما خطر بالبال لا يمكن إلا أن يكون محسوساً، وكما الله يقتضى تنزيهه .

أما هؤلاء الذين قصر تفكيرهم فإنهم تخيلوا الله - جل وعز - على صورة رجل ضخم .

لقد أطال العلماء في بحث الآراء الموضوعية ، والآراء الذاتية ، ورأوا

== ولعل الكثير قد قرأ حكاية ذلك الرجل الساذج ، الذي حضر مجلساً من مجالس المعتزلة فسمعهم يتحدثون عن الله ويقولون : « إنه سبحانه ليس بغوق ، ولا بتحت ، ولا بيمين ولا بشمال ، ولا بخلف ، ولا بأمام ، وليس بمادة ، ولا بعرض ، فخرج نائراً يعلن أن : « هؤلاء قوم يريدون أن يقولوا : أن ليس في السماء إله » . هذا الرجل الساذج لم يمكنه أن يتخيل موجوداً خالياً من المحسوسات ولم يمكنه أن يعقل ما لم يتخيله ، فاعتقد : أن المعتزلة ينكرون الله . هذا وحاول أن يتخيل أنت ما في الجنة وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، فإنه سوف لا يخطر لك على قلب ؛ ذلك أن ما يخطر على القلب ليس شيئاً آخر غير ما رآه العين ، أو سمعته الأذن .

ثم إذا كنت قد قرأت ما قيل عن مدينة المستقبل ، وما كتب عن المدينة الفاضلة فقد رأيت أنه — رغم إرادة الإغراب أو التجديد لم تخرج تلك المدينة عما رأيت ، سوى إنه مكون تكوينا جديداً .

لا يخرج الخيال إذاً في عناصره عن الواقع ، ولا يمكن للإنسان أن يتخيل إلا المحسوس .
(ب) التخيل والبيئة . إذا قرأت تشبها للعاب المرأة بماء غير آسن ، وللشيشين المتشابهين بأنهما كحفي بعير ، فلا أظن أنه من العسير عليك أن تعلم الموطن الذي نبع منه هذان التشبهان ، وربما تكون قد قرأت ما أجاب به ابن الرومي ، حينما عاب عليه بعضهم بأنه لا يتخيل كتخيل ابن المعتز ؛ ضار بين له مثلاً ، تشبيه الهلال « بزورق من فضة أثقلته حمولة من عنبر ، فأجاب هذا يصف آنية بيته . وأظنك تقرر معي أيضاً أن البيئة العالمية في العصور الوسطى لم تكن تسمح باختراع الراديو فلم يخترع .

هذا وكثير غيره يرشدنا إلى ما للبيئة من أثر على التخيل ، وأن كل إنسان يتأثر تخيله بما في بيئته من صور طبيعية ، ومن ثروة ثقافية .
والأمر لا يقتصر على ذلك ، بل يتغير تخيل الشخص بتغير بيئته .
وكما كثرت المثل العليا في بيئة ، وكما سميت موازينها الأخلاقية ، كلما كثرت الرشد فيها ، وابتعد الخيال عن دائرة الآثام .

أن الأولى لا تقبل جدلاً : ذلك لأنها تعتمد - الاعتماد كله - على الحس ، أما الآراء الذاتية - وهي قائمة على أسس أخرى - فإنها مجال للأخذ والرد ، ولا يمكن الوصول فيها إلى نتيجة حاسمة مهما طال النقاش . وإذا كانت مادة الأخلاق ، هي الميدان الخصب للآراء الذاتية ؛ فإن الإلهيات وهي حجب ومساطر - ميدان أخصب : لذلك لا يعدوا البحث فيها أن يكون « علماً كلامياً » ، أو « علماً جدلياً » .

ومهما أشاد المعتزلة بالعقل ، ومهما رفعوا من شأنه ، فن البديهي : أن الميدان الذي يتخبط فيه العقل تخبطاً لا نهاية له ، إنما هو ميدان ما وراء الطبيعة .

ومن الواضح أن مذهب المعتزلة على ما فيه من روعة ، ودقة ، وجمال ، وعلى ما أداه من خدمات جليلة ، في ميدان المنطق الديني ، لا يقوم على أساس « معقول » .

* * *

قد تقول : إن العقل - وهو أساس مذهب المعتزلة ، ومذهب العقليين عموماً - لا يقايسه ، وله موازينه التي لا يتطرق إليها الخلل . إن المنطق القديم منه والحديث ، آله تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير . ولقد جاهدت الإنسانية جهاداً طويلاً ، حتى جعلت من الاستقراء والقياس أداتين للفصل بين الهدى والضلال ، وللتفرقة بين العماية العمياء ، والصواب الأصوب .

فالاستقراء والقياس - إذاً - هما وسيلة العقل ، وهما يفصل التفرقة بين النقي والرشاد . فن التجنى على المعتزلة وعلى العقليين - وقد اعتمدوا عليهما - أن نصم مذاهبهم بمجافاتها للطريق الأقوم . إن وجهة النظر هذه تبدو وكأنه لا غبار عليها . بيد أنها عند النظرة الفاحصة تنزل ، وتتهار .

أما أولاً : فلأن المعنزة أنفسهم ، والعقلانيين عامة — مع اعتمادهم على الاستقراء والقياس — قد اختلفوا فرقا وأحزاباً لا تحصى ، وكل فرقة أو شيعة تتبع رئيساً وصل به « استقراؤه » ، ووصل به « قياسه » ، إلى نتائج معينة ، تختلف — في قليل ، أو في كثير — عن نتائج استقراء آخر ، وقياس مختلف .
وأما ثانياً : فلأن الفكرة — المنطق يعصم الذهن عن الخطأ في التفكير ، أو المنطق وسيلة التفكير الصحيح — فكرة خرافية ، أكثر منها حقيقة ، وذلك يحتاج إلى تبيان .

إن المقاييس هي كما ذكرنا : الاستقراء ، والقياس .

أما الاستقراء — وهو أساس المفاهيم العامة والقضايا السلكية — فإنه :
١ — مبنى كله على الحس : إنه استقراء محسوسات ، إنه تتبع جزئيات ، لا يخرج عن نطاق الواقع ، أما المساتير فهو يرى منها كل البراءة ، إنها لا تدخل في دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن أن يخترق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة .

٢ — ثم إن الاستقراء : تام ^(١) ، وناقص . والتام — كما يعترف المناطقة — لا غناء فيه ، ولا فائدة منه .

أما الناقص — وهو المهم في نظرهم فإنه — في رأيهم أيضاً — ظني ، وهو — لذلك — عرضة للتغيير ، في كل آونة .

« كل معدن يتمدد بالحرارة ، تلك قضية من قضايا الاستقراء . إنها قضية

(١) « الاستقراء : وهو حكم على كلى لوجوده في جزئيات ذلك السلكي ، إما كلها : وهو الاستقراء التام الذي هو القياس المقسم ، وإما أكثرها : وهو الاستقراء المشهور ، ومخالفته القياس ظاهراً ، لأنه في القياس يحكم على جزئيات كلى لوجود ذلك الحكم في السلكي ، فالسلكي يكون وسطاً بين جزئية ، وبين ذلك الحكم الذي هو الأكبر ، وفي الاستقراء يقلب هذا فيحكم على السلكي بواسطة وجود ذلك الحكم في جزئياته » ، عن « البصائر النصيرية » .

عامة ، شاملة ، ولكن المعادن لم تسكتشف — بعد — بأكلمها ، ومن الجائز أن يكتشف في الغد معدن لا يتمدد بالحرارة . إنها — إذا قضية مؤقته ، ظنية ، تبرأ من اليقين الفلسفي .

يقول الدكتور طه حسين بحق « والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله . وإنما حقائقه كلها إضافية مؤقتة ، لها قيمتها حتى يتكشف البحث عما يزيد هذه القيمة أو يغيرها » (١) .

وهكذا قضايا الاستقراء . إنها :

١ — خاصة بالطبيعة ، ولا شأن لها بما وراءها .

٢ — ظنية ، لا تعرف اليقين .

أما القياس :

١ — فإنه مبني على الاستقراء ، إذ هو منطوق دائماً على كلية ، كلية

استقرائية ، وما دامت قضايا الاستقراء ظنية — كما رأينا — وميدانها المحسوسات ؛ فنتائج القياس ظنية كذلك ، وميدانها المحسوسات .

٢ — ثم إن المناطقة لا يشترطون في مقدمات القياس ، أن تكون مسلمة ،

صادقة في نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلسلها المتجادلون بحسب . وقد تكون —

كما يقول : صاحب البصائر التصيرية ، « منكورة ، كاذبة في نفسها ، وفي هذه

الحالة يكون القياس صحيحاً ، ونتيجته باطلة .

وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟ ما قيمته إذا كان لا يعول

فيه إلا على أن تكون المقدمات مستوفية لشروط الإنتاج بحيث تستلزم

النتيجة وإن لم تطابق النتيجة الواقع ؟ ما قيمته إذا كان لا يحفل بصدق

النتيجة أو كذبها ؟

(١) مقدمة فجر الإسلام .

إنك إذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدي إلى الاستقلال الفردي ، وكل ما يؤدي إلى الاستقلال الفردي مضر بالمجتمع ؛ فالكثير من العلم مضر بالمجتمع . كان هذا قياساً صحيحاً في نظر المنطقة .

وإذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدي إلى التماسك الاجتماعي ، وكل ما يؤدي إلى التماسك الاجتماعي مفيد للمجتمع ؛ فالكثير من العلم مفيد للمجتمع — كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند المنطقة ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان .

٣ — ومع كل هذا فالقياس استدلال دوري فاسد ؛ ذلك أن العلم بالنتيجة في نحو قولنا : « محمد إنسان ، وكل إنسان ناطق ، فمحمد ناطق ؛ متوقف على العلم بالكبرى ، والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة ؛ لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقية على جميع أفراد النوع الإنساني ، إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد . ولو كنت في شك من ذلك ، لما استطعت تعميم الحكم بالناطقية على جميع أفراد الإنسان . وإذا تكون الكبرى متوقفة على النتيجة ، والنتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس : استدلالاً دورياً فاسداً ، فلا يعول عليه .

٤ — وأخيراً ؛ فالمفروض أن نتيجة القياس جديدة كل الجدة ؛ إنها استنتاج مجهول — هو النتيجة — من معلوم ، هو المقدمات .

ولكن النتيجة متضمنة في المقدمات ، إنها ليست بمجهولة ، والقياس لا يؤدي ، إذاً ، إلى معرفة جديدة . أو إلى استنتاج مجهول من معلوم . إنه — إذا أردت الدقة — استنتاج معلوم من معلوم .

تلك هي موازين العقل — وسنزيد الأمر — أمر قصور العقل —
إيضاحاً في فصل تال — وهي موازين لا غناء فيها ، ولا جدوى منها .

العقل إذاً قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات .

ومن هنا كانت الحكمة في نزول الأديان .

ومن هنا كان السبب في اقتصارها على الأخلاق والإلهيات .

وإذا كانت قد تحدثت في التشريع ؛ فإن التشريع داخل في نطاق الأخلاق .

بيد أن الأديان إذا كانت قد اتخذت موقفاً حاسماً فيما يتعلق بتحديد الخير ، والشر ، فإنها في المغيبات ، لم ترهق الإنسان من أمره عسراً ، فتوضح له ما ليس في مقدوره إدراكه ، أو تبين له ما يسمو عن التبيان .

أما هذا الذى يسمو عن التبيان ، فإنه ذلك النوع من المعرفة الذى لا يدخل في نطاق المحسوسات ، وبالتالي لا يدخل في نطاق العقليات أعنى المساتير .

وإنه ليعجبنى في هذا المقام قول ابن « عبد البر » المتوفى سنة ٤٦٣ هـ :
« إن الله ليس كمثل شئ : فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر ، » .

لذلك رسمت الأديان في هذا المحيط إطاراً عاماً فقط ، وهذا الإطار العام نفسه مبنى بعضه على الحس ، وهو داخل في نطاق الآيات المحكمات التى هى أم الكتاب : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . »

والعالم يقول ، عن مشاهدة ، « المركب اللغى فيها ريسين تغراً ، » .

أما بعضه الآخر فهو المتشابهات « فأما الذين فى قلوبهم زيغٌ فيمتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنه وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمناً به ، كلٌ من عند ربنا ، » .
وحكمة قدماء المصريين دقيقة كل الدقة إذ تقول : محال على من يفنى ، أن يزيل النقاب الذى تنقب به من لا يفنى ، » .

رسمت الأديان إطاراً عاماً ، ولكن هذا الأطار لا يرضى النفوس الطالعة ، التى أبت - خطأ - أن تعترف بحدود للعقل ، أو بقصور فيه ،

فبحث داخل هذا الإطار وخارجه ، فكان ما كان من تشعب ، وفرقة ، واختلاف .

إننا لانشك في أن رؤساء الفرق الإسلامية — معترلة كانوا أم أشاعرة ، وشيعة كانوا أم سلفيين — قد تشبعوا بإيمان راسخ ، وحرارة دينية فائقة ، وعقيدة لا تزغ عنها الأعاصير .

وقد اعتمدوا جميعاً على نصوص واحدة : كتاب الله ، وحديث رسوله .

فلم كان الاختلاف ؟ ولم هذا التشعب الذي لا ينتهي ؟

لسنا — في تعليل ذلك — أمام مشكلة لا تحل ؛ إذ الشأن في ذلك إنما هو الشأن في كل الآراء الذاتية ، التي لا تخضع إلا إلى الاستعداد الشخصي وحده . ولو استقامت أمور المسلمين الدينية ، لما حادوا عن موقف الإمام مالك : التسليم المطلق « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » .

* * *

آراء ذاتية ، داخل الإطار العام ، آراء هي من صنع البشر ، آراء تتحد في نسبتها — من حيث القرب والبعد — إلى النصوص المقدسة . «إنها آراء ، بيد أن النزعة التي صدرت عنها هذه الآراء — الاستعداد الشخصي — نزعة مفرقة .

ثم إنها آراء غير مفهومة ، وكل من عالج — في إخلاص — تصور صفات خارجة عن الذات ، أو تصور صفات هي الذات ، فإنه يقر معنا أن ذلك إنما علمه عند ربى .

إن الطريق الأقوم — إذأ — هو التسليم المطلق ، وهذا هو الإيمان بمعناه الصحيح . يقول الإمام الغزالي :

« والتحقق بالبرهان علم ، والقبول مع التسامع والتجربة بحسن الظن : إيمان ، .

ولكن ذلك ليس معرفة مباشرة .

لاشئء إذا بما سبق من وسائل المعرفة يصل بنا إلى المعرفة المباشرة في محيط ما وراء الطبيعة : وتلك هي النتيجة التي نريد من كل ما سبق الوصول إليها ، وإذا أردنا تلخيص ما نريد أن تنتهي إليه قلنا :

(١) الحس عاجز عن الوصول بنا إلى المغيبات ؛ فإننا لانحسها .

(٢) العقل وهو مبني على الحس — قاصر كذلك .

(٣) النصوص الدينية لاتؤدى بنا إلا إلى نوع من المعرفة غير المباشرة ،

أو إلى التسليم ، أو التفويض ، وليس ذلك من المعرفة المباشرة في شئء .

وإذا ؛ فعلم الكلام ، الذي لايسير على نهج ساني — وهو آراء من صنع البشر — ليس بدعة فحسب ، وإنما هو ضلالة ، وهو عبث ، وهو انحراف عن السبيل السواء .

قال الإمام مالك : الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه . نحو الكلام في رأى جهنم ، والقدر ، وما أشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل .

وقال الإمام أحمد : لا يفلح صاحب كلام أبدأ ، ولا نكاد نرى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل .

وقال الامام مالك : رأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم لدين جديد؟

* * *

هل معنى ذلك أن المعرفة فيما يتعلق بالإلهيات غير ممكنة ؟

هل معنى ذلك أن الغطاء لا يمكن أن يكشف عن الحجب ؟ وأنه لاسبيل

إلى المعرفة الحقيقية المباشرة ؟

ذلك ما لا نقول به .

ما السبيل إذاً إلى المعرفة . . . ؟

في وسيلة المعرفة

سيدنا رسول الله - صلوات الله عليه وسلامه - معجزة التاريخ، وهو المنارة الذي يهتدى بها الإنسان كلما انبهت الأمور، أو ضلت الآراء .
وحياته قبل البعثة - كحياته بعدها - عظة وعبرة، وهداية، ومثل أعلى لمن أراد الطريق الأقوم .

إن من يتدبر حياته - صلوات الله عليه - قبل البعثة، ولا يكون عنده فكرة صحيحة عن النبوة من حيث إنها لا تكتسب اكتساباً، وإنما توهب من الله تعالى - يكاد يعتقد أنه اقتنص الوحي اقتناصاً، واضطره إلى النزول اضطراراً، وأنه أنى إلا أن يظفر بما يريد، فكان له ما أراد .

بيد أن الصواب هو أن الله اصطفاه، وفضله على العالمين، عندما حان الموعد الذي حددته العناية الإلهية لتتجلى عن طريق من اختارته رسولاً .
يقول الإمام المراغي رحمه الله : « النبوة هبة لا تنال بالكسب، لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعد لها، القادر على حملها » الله أعلم حيث يجعل رسالته .

ومحمد ﷺ أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمع، أحمره وأسوده، لإنسه وجنه .

وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين .

ولأن يحتم به الأنبياء والرسول، وليكون شمس الهداية وحده، إلى أن تنفطر السماء، وتنكدر النجوم، وتبدل الأرض غير الأرض، والسموات (١) اهـ

(١) من مقدمة « حياة محمد، للدكتور هيكل .

أما هذا الاعداد ، فقد حاطه الله بعنايته التامة ؛ إنه أعده من ناحية أسرته : أعنى من ناحية الوراثة ، وأعده من ناحية فطرته : أعنى طبيعته الشخصية .

أما من ناحية أسرته ؛ فهذا جده عبد المطلب يقول فيه الدكتور طه حسين - وهو في هذا ليس أديباً متمازاً بحسب وإنما هو مؤرخ ملهمهم - : « كان عبد المطلب سمح الطبع . رضى النفس ، سخرى اليد ، حلو العشرة ، عذب الحديث . وكان عبد المطلب أيضاً قوى الإيمان ، تملك قلبه ، وتسيطر على نفسه ، نزعة دينية احادة عنيفة ، ولسكنها غامضة ، يحسها ، ويخضع لها ، ولسكنه لا يتبينها ، ولا يستطيع لها فهماً ولا تفسيراً . . . »

« كان قتي من فتيان قريش ، ولسكنه يمتاز من بقية فتيان قريش .

فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إباؤهم وعزتهم ، ولسكن فيه دعة ، لم تكن مألوفة عندهم ، وفيه شدة في الدين ، قلبها كانوا يرضونها ، أو يبسمون لها .

على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التميز ، فلم يكن يصدر في حياته كما كانوا يصدرون ، عن الروية والتفكير ، وطول التدبر ، وإنما كانت تدفعا إلى العمل ، والاضطراب في الحياة قوة خفية ، يحسها ، ويأبى عليها ، ويغلو في الإباء ولسكنه يضطر إلى أن يذعن لها ، ويصدع بأمرها .

وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها في أشكال مختلفة : تدفعا إلى العمل حيناً ، وكأنها إرادته الخاصة ، قد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ، ولا يملك لها خلافاً .

وتتمثل له حيناً آخر شخصاً ، واضح الخيال ، بين الصوت ، يلم به إذا اشتمله النوم ، فيأمره أن يأتى كذا وكذا من الأمر .

وكان في هذا الصوت غموض ، وكان في هذا الصوت إبهام ، وكان في هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام . وكان الفتى ينسكبه ،

ويرتاع له ؛ وكان الصوت يغمره ويلح عليه . وكان الفتى يخاف هذا الصوت ويهواه ، وكان الصوت يتجنب الفتى حتى يؤيسه من نفسه ، ويلم به فيكثر الإمام . ولم يكن هذا الصوت يقع في أذن الفتى بالفاظ كالتى تقع آذان الناس ، إنما كان يصطنع ألفاظا خاصة ، غريبة الجرس ، غريبة المعنى ، (١) اه .

أما والده — عبد الله — فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، وكان شعاره « أما الحرام فالمات دونه » .

وتقول له فاطمة الخثعمية : إني لأعرف فيك نسك أبيك .

قبيلته قریش ، وأسرته بنو هاشم ، وجده عبد المطلب ، سيد قریش إذ ذاك ، ووالده عبد الله : فكان هو محمداً .

ولقد اختاره الله للرسالة ، ولكنه تعالى اصطنعه لنفسه ، قبل أن يختاره . أجل ! وهذه الفترة من حياته التى سميقت البعثة ، كانت فترة جهاد ، وصراع روحى هادى أشد الهدوء ، عنيف أشد العنف ، مستمر لا ينقطع ، فيه الخوف ، وفيه الرجاء وفيه الكثير من الأمل الوثاب ، الذى يشحن العزيمة ، ويسد على اليأس القناط كل منفذ . إن هذه الفترة من حياته كانت على حد تعبير الجنيد فى تعريف التصوف — عنوة لا صلح فيها .

كان صلوات الله عليه ، يتوج كل عام ، جهاده الروحى المتصل ، بشهر يقضيه فى غار حراء : حيث الخلوة التامة ، وحيث التجرد المطلق ، أو شبه المطلق ، عن كل ما سوى الله ، وهناك ، فى سجوة الليل ، أو فى رائحة النهار ، يحاول محمد أن يحطم الحجب ، وأن يخترق المساتير ، وأن ينقذ ببصيرته إلى عالم الغيب ، فيصل إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين ، أو أدنى ، حتى يشاهد الجمال فى سنائه ، والجلال فى عظمته ، وكبريائه ، وجلاله .

ها هو الرسول ، يبذل مجهودا جبارا ، لا يكاد الإنسان يتصوره ،

(١) « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين .

فضلا عن أن يأتي بمثله . وها هو ذا ، يرى الهدف بعيدا لا يكاد الإنسان يفهمه ، فضلا عن أن يصل إليه . وها هو ذا ، يرى الطريق وعناء ، صعبة المرتقى بيد أن ذلك كله لم يكن إلا ليزيده عزيمة على عزم ، وإرادة على إرادة ، ونشاطا مضاعفا ، إنه الجهاد الأكبر ، على حد تعبير الرسول . عن جهاد النفس ، لتتزكى .

وتمضى السنون ، بطيئة سريعة في آن واحد ، وجهاد الرسول لا يفتر ، حتى أصبح ، أو كاد ، روحا خالصة ، أو قبسا من نور الله ، وانتهى به الأمر إلى قرب ، يقول عنه الإمام الغزالي إنه : « أول حال رسول الله عليه السلام ، حين أقبل على جبل حراء ، حيث تقبل ، حين كان يخلو فيه بربه ، ويتعبد حتى قالت العرب : « إن محمدا عشق ربه ا » .

ثم كانت الرسالة ، وكانت المعجزة التي غيرت مجرى التاريخ :

« إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . » . يقول الدكتور هيكل : « وجد محمد فيه (في التحنث) خير ما يمكنه من الإيمان فيما شغلت به نفسه ، من تفكير ، وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة ، يلتبس أثناءها الوسيلة إلى عالم يبرح شوقه يشتهي إليه . من نشدان المعرفة ، واستلها مافي الكون من أسبابها . وكان بأعلى جبل حراء - على فرسخين من شمال مكة - غار ، هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان ، من كل سنة ، يقيم به مكثفيا بالقليل من الزاد يحمل إليه ، بمعنا في التأمل ، والعبادة ، بعيدا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ملتصقا بالحق ، والحق وحده . ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة ، حتى لسكان ينسى نفسه ، وينسى طعامه وينسى كل مافي الحياة ؛ لأن هذا الذي يرى في حياة الناس مما حوله ليس حقا

« وشارف محمد الأربعين ، وذهب إلى حراء يتحنث ، وقد امتلأت نفسه
إيماناً بما رأى في رؤياه الصادقة ، وقد خلصت نفسه من الباطل كله ، وقد
أدبه ربه ، فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة
الخالدة ، وقد اتجه إلى الله بكل (روحه) ، أن يهدى قومه ، بعد أن ضربوا في
تيه الضلال ، وهو في توجهه هذا يقوم الليل ، ويرهف ذهنه وقلبه ، ويطيل
الصوم . وتنور به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى طرق الصحراء ، ثم يعود
إلى خلوته ، ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه ، وما يتبين له في رؤاه . ولقد طالت
به الحال ستة أشهر ، حتى خشى على نفسه عاقبة أمره ، فأسر بمخاوفه إلى
خديجة ، وأظهرها على ما يرى ، وأنه يخاف عبث الجن به . فظمأنته الزوج
المخالصة الوفية ، وجعلت تحذره بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب
منه ، وإن لم يدر بخاطرها ، ولا بخاطره أن الله يهيء مصطفاه بهذه الرياضة
الروحية ، إلى اليوم العظيم ، وإلى النبأ العظيم ، يوم الوحي الأول ، ويهيئه
بها إلى البعث والرسالة .

وفيا هو نائم بالغار يوما جاءه ملك وفي يده صحيفة ، فقال له : « اقرأ » .^(١)

* * *

هذه الحياة التي هداه الله لها — لاعلم الكلام ولا الفلسفة العقلية — هي التي
رسمت لنا الطريق إلى الله : طريق الكشف ، طريق الإلهام ، طريق البصيرة ، بل
طريق المشاهدة ، على ما يرى الصوفية .

وهذه الحياة التي علمناها عن الرسول إجمالاً ، قد فصلها الصوفية أدق
تفصيل ، وبينوها بياناً « سيكولوجياً » ، غاية في الإحكام : يتدرج مع الإنسان
خطوة خطوة ، حتى يصل به إلى درجة — لانقول إنها النهاية ؛ إذ ليس
لمعرفة الله نهاية — يكون ما بعدها بعيداً كل البعد عن إدراك الطبايع البشرية

(١) من « حياة محمد » للدكتور هيكل .

العادية ، فلا يمكن التعبير عنه بلسان المقال .

وهذا الطريق سماه الصوفية : معارج القدس، وسموه : منازل السالكين، ومدارج السالكين، ومنازل الأرواح، وهو عبارة عن المقامات والأحوال التي يسلم كل مقام منها إلى ما بعده، وكل حال منها إلى الذي يليه ، حتى يصل الإنسان إلى القرب، والمشاهدة، ويستغرق في ملكوت، يسمو على الوصف . يقول الإمام الغزالي : « ومن أول الطريق تبتدىء المكاشفات ، والمشاهدات ، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتمسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال، من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، .

حول كلمة : تصوف

١ - يروى عن أفلوطين : أنه كان يمتنع عن التحدث فيما يتعلق بشخصه كفرد ، ولو أمكنه أن يلغى سيرته الشخصية من أذهان الناس ، ولو أمكنه أن يلغى اسمه ، لفعل ، راضيا معتبطا ، ذلك أن التسمية ، والجانب الشخصى الفردى فى الإنسان لا قيمة لهما ، إذا نظرنا إلى الآفاق العليا من الروحانية .

وبما يتلام مع هذا الاتجاه ، قول بعض الصوفية ماعناه : إن طائفة الصوفية لو تنزهت عن الفردية والشخصية ، لنزههم الله عن التسمية تنزيها مطلقاً ، ولكن لما شاب الفردية أعمال بعضهم ، وُضع لهم اسم ، واندرجوا تحت عنوان : الصوفية .

هذا الاسم الذى أطلق عليهم اختلف فى أصله وفى مصدر اشتقاقه . ولم ينته الرأى فيه إلى نتيجة حاسمة بعد .

ومن أقدم الآراء التى قيلت ، وأطرفها : ما ذكره البيرونى : من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف للكلمة : « سوف » اليونانية ، التى تعنى الحكمة . يقول البيرونى : إن من اليونانيين « من كان يرى الوجود الحقيقى للعلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه ، وحاجة غيرها إليها ، وأن ما هو مقتدر فى الوجود إلى غيره فوجوده كالخيال غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط ، وهذا رأى الصوفية ، وهم الحكماء ، فإن « سوف » باليونانية الحكمة ، وبها سُمى « الفيلاسوف » بيلاسويا أى محب الحكمة .

ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم ؛ سمو باسمهم .

ويرى البيرونى أن التصحيف دخل هذا الاسم بعد ذلك ، فقال : مفسرا

ومعللا : ولم يعرف اللقب بعضهم ، فنسبهم — للتوكل — إلى الصفة ،
وأنتهم أصحابها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم صحف بعد ذلك فصير : من صوف التيوس . . .

ورأى البيروني هذا ، على طرافته ، لا يستقيم لسبب بسيط ، وهو أن
التسمية بالصوفي كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية .
فالبيروني يقول صراحة : « ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من
رأيهم سمو باسمهم » .

ورأى البيروني ، إذن لا يستقيم ، إلا على أن هذا اللفظ نشأ في الإسلام
بعد أن عرفت الكلمة اليونانية ، وعرف معناها ، وتداولتها الألسنة ،
ولاكتها الأفواه ، وألفت معناها العقول ، أي حوالي منتصف القرن الثالث
الهجري ، على أقل تقدير . مع أن الكلمة عرفت قبل ذلك بكثير ، بل لقد
عرفت في العهد الجاهلي ، على ما يرى صاحب اللمع .

ولسكن إذا كان رأى البيروني لا يستقيم ، فإلام نتجه في اشتقاق
هذه الكلمة ؟ إن الآراء أصبحت معروفة ، بل لقد كانت معروفة من قديم
الزمان ، وصاحب الرسالة القشيرية يستعرضها رأياً ، رأياً ، وينقضها جميعاً .

١ — فأما قول من قال : إنه من الصوف ، وتصوف إذا لبس الصوف ،
كما يقال : قمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه .

ولسكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

٢ — ومن قال : إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ .
فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي .

٣ — ومن قال : إنه من الصفاء .

فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة .

٤ — وقول من قال : إنه مشتق من الصف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى ، فالعنى صحيح .
ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف .

وإذا كان صاحب الرسالة القشيرية ينتقد كل هذه الآراء ، فإنه إذن ، لا يرى الاشتقاق ، ويقول : هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل صوفى ، وللجماعة صوفية ؛ ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف وللجماعة المتصوفة .

وليس يشهد للاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب .

لقد استعرضنا الآراء التي قيلت في هذا الموضوع قديماً فهل ، ياترى ، هناك من جديد ؟

٢ — ما رأى الباحثين الحديثين في أصل كلمة : « تصوف » ؟

يقول الشيخ عبد الواحد يحى :

أما أصل هذه الكلمة : « صوفى » : فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها أولى من بعض ، وكلها غير مقبولة . إنها في الحقيقة تسمية رمزية ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، فإنه لمن الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف « صوفى » تماثل القيمة العددية لحروف : « الحكمة الإلهية » ، فيكون الصوفى الحقيقي ، إذن ، هو الرجل الذى وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه : « العارف بالله » ، إذ أن الله لا يعرف إلا به .

وتلك هى الدرجة العظمى « السكانية » ، فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

وقد انفرد الشيخ عبد الواحد يحى فيما نعلم ، بهذا الرأى ، وهو رأى لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية ، ولسكنه لا يمكن أيضاً أن يؤيد بالأدلة

المنطقية ، يستسيغة قوم دون برهان ، وينفر منه آخرون من غير حاجة .
وإذا تركنا الشيخ عبد الواحد لننظر إلى الباحثين في هذه اللفظة فإننا
نجدهم ينقسمون إلى فريقين لا ثالث لهما .

يجارى فريق منهم أبا الريحان البيروني ، في أنها مأخوذة عن أصل
يوناني ، هو كلمة : « سوفيا ، اليونانية .

وقد قال بهذا الرأي « فون هامر » من المستشرقين .

واعتمقه كثير من الأساتذة الباحثين .

وأيده في حرارة محمد لطفي جمعة .

أما السبب الذي جعلهم ينصرفون عن نسبة الكلمة إلى الصوف ،
فهو . أنهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف يبعد الصوفية عن الحكمة الإلهية
وينسبها إلى الظاهر والشكل وعلى حد تعبير محمد لطفي جمعه : « مجرد هذه
الفرقة المنتهية إلى الإسلام ، من صفة الحكمة والفضيلة » .

وقد بينا رأينا في هذا الموضوع فيما مضى ، ونقول الآن :

إن أصحاب هذا الرأي يعطون قوة وتأيداً لمن يزعم أن التصوف
الإسلامي وليد الفلسفة الأفلاطونية وهو رأى باطل .

ولقد هاجم الدكتور زكي مبارك هذا الرأي في قوة وفي منطق سليم .

لقد كان العرب — حسبما يرى — مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من
الألفاظ الأجنبية ، ولو كان « التصوف » من « سوفيا » لنصوا عليه في
كثير من المؤلفات .

ثم أن كلمة « سوفيا ، اليونانية ، معناها الحكمة . وكانت « الفلسفة »
عند اليونان القدماء تهتم بالعلوم الطبيعية ، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء .
وقد ترجمها العرب : فسموا الطب : « الحكمة » وكلمة : « حكيم » لا تزال
تؤدى معنى كلمة : « طبيب » ، والفلسفة نفسها سماها العرب : « الحكمة » .

وقالوا : تاريخ الحكماء . فهم عرفوا من سوفيا «الفلسفة والطب» . أما الحكمة الروحانية : فمن البعيد أن يكونوا لمحوها ، لأنهم كانوا يرون اليونان من عبدة الأوثان .

ثم يقول الدكتور زكي مبارك ، في ظرف ظريف ، وفي صورة من الجد . هي تعبير ، أبلغ التعبير ، عن التهمك والسخرية : على أنه ، ما الذى يمنع أن تكون «سوفيا» بمعنى الحكمة الروحانية ، جاءت من كلمة : «صوف» ، وهي قديمة في العربية ؟

أن التصوف قديم جدا عند العرب ، وهو أساس المسيحية ، ولبس الصوف كان علامة التقشف ، فليس من المستبعد أن ترحل كلمة «صوف» إلى معابد اليونان .

ولم يبق بعد ذلك إلا أن يكون هذا رأى ، على حد تعبير الدكتور زكي مبارك «ليس إلا ضربا من الإغراب» .
أما الفريق الثامن من الباحثين الحديثين — وهم أكثرية — فإنه يرى أن كلمة «تصوف» مأخوذة من «الصوف» .

٣ — إننى أرى — كما ترى الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين — أن لفظة «التصوف» تنسب إلى الصوف . وكما أنه يقال تقمص إذا لبس القميص — كذلك يقال تصوف إذا لبس الصوف . ومن أبرز القائلين بهذا رأى المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، والمرحوم الدكتور زكي مبارك ، والمستشرق مرجليوت .

وإذا كانت هذه الكلمة تنسب إلى اللبس — وهو مظهر وشكل ورسم فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال .

وليس من المحتم دائماً أن يكون المعنى الأصيل للاسم هو المراد بما وضع الإسم له ، إذ المعنى الأصيل قد يتطور ويتغير ويختلف ، وقد يقصد عكسه . ومن أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا

التصوف إلى الصوف بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه .
حقيقة أن الباحثين كثيراً ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى الأصلي للاسم
وما وضع الاسم له . أو بين الإسم والمسمى . ولكن ذلك ليس مطرداً .
والواقع أن التصوف أصبح معنى معروفاً لا شأن له بالمظاهر
والاشكال .

وإذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يمارون في قيمته أو فائدته فانهم
لا يتخذون التسمية تسكأة لهذه الممارسة . ولو فرضنا أنهم اتخذوها تسكأة
لخرجوا عن سميت الباحثين ، ولأصبحوا سخرية من الساخرين .
على أنني أرى ، كما يرى كثير غيري ، وكما يثبت التاريخ ، أن هذه الكلمة
' تصوف ' لم توضع في الأصل للتصوف بمعناه العادي الذي نفهمه الآن ،
وإنما وضعت في المبدأ ، لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا : إنها كانت
علامة الزاهدين والمتنسكين فسمى بها هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا .
إن العزوف عن الدنيا عادة قديمة جداً ، يتمسك بها بعض الناس تمسكاً
مع فكرة دينية وإرضاء لشعور تنسكي .

وقد حدثنا القرآن عن هؤلاء الذين ترهبوا ابتغاء رضوان الله .
ويتمنّهب بها بعض الناس إرضاء لفكرة منطقية ، واتباعاً لمذهب
عقلي يرى السعادة في الهدوء ، والهدوء لا يتأتى إلا بتحديد الرغبات والبعد
عن الشهوات وذلك هو الزهد .

وسواء أكان العزوف عن الدنيا ديناً أم كان منطقاً . فإنه موجود منذ
أقدم العصور .

فالدين صاحب الدنيا منذ نشأة الإنسان فيها .

والمنطق صاحب الإنسان منذ وجوده .

ولقد رأى هؤلاء الزهاد — من ناحية الملبس — في الصوف ما يحقق
أهدافهم التي تتصل بالتنظيف والشطف والخشونة ، فهو متين رخيص .

خشن لا يحتاج الإنسان معه في الشتاء إلى غيره ، ولا يحتاج إلى تغييره كثيراً ذلك أنه لا يبلى بسرعة فتصوفوا : أى لبسوا الصوف . وكان لابد من اسم يطلق على هؤلاء ، وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم صوفية واطلق الإسم مصادفة ، أو تعمداً : فذاع وشاع ، وأصبح الزهاد يعرفون — في البيئات العربية — باسم الصوفية .

هؤلاء الزهاد كانوا موجودين في العصر الجاهلي تديناً أو منطلقاً ، وكانوا موجودين في صدر الإسلام تديناً أو منطلقاً ، حتى إذا كانت رابعة وكان الجنيد وكان ذو النون . . . حتى إذا وجد التصوف بمعناه الحقيقي وكان يملوه عازفين عن الدنيا لابسين للصوف أطلقت الكلمة عليهم .

ولم يميز الناس بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف هما : حالة الزهد البحت ، وحالة التصوف ، ولم يثر الصوفية على التسمية في حد ذاتها . ومن لم يرض منهم نسبتها إلى الصوف ذهب في نسبتها مذاهب أخرى .

وإذا كانت الكلمة تنسب إلى الصوف فهي كلمة موفقة كل التوفيق ولعل عناية المقادير هي التي هيأت لها الجو للظهور والشيوع — إذ أنها تمت بصلة حرفية نغمية جرسية إلى كثير من الكلمات التي تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف كالصفاء « وصلته بالتصوف ظاهرة ،

والصف « الصف الأول في الجهاد : جهاد العدو وجهاد النفس » .
والصفة « صفة مسجد رسول الله التي كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم لله وللجهاد ، والصفة « الصفة الجميلة » .

وسوفيا اليونانية التي تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص ، .
وكان من التوفيق أيضاً هذا الغموض نفسه في أصل الكلمة ، فما من شك في أن اختلاف المذاهب والآراء في أصلها يبين الكثير من معاني التصوف ومن مظاهره . والله ولي التوفيق .

التصوف^(١)

الشريعة والطريقة والحقيقة :

ربما كانت العقيدة الإسلامية — من بين العقائد الموروثة — هي العقيدة التي يظهر فيها بوضوح ، التفرقة بين جزأين كاملين ، هما « الظاهر ، و « الباطن ، أعنى :

« الشريعة ، وهي الباب الذي يدخل منه الجميع .

و « الحقيقة ، ولا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار .

وهذه التفرقة ليست تحكيمية ، وإنما تفرضها طبيعة الأشياء ، ذلك أن استعداد الناس متفاوت ، وبعضهم معد بفطرته لمعرفة الحقيقة .

وكثيراً ما تجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة ، بالقشر واللب ، أو بالدائرة ومركزها .

والشريعة تتضمن — فضلاً عن الناحية الاعتقادية — الناحية التشريعية ،

والناحية الاجتماعية ، وهما جزآن لا يتجزآن عن الدين الإسلامي : إنها — أولاً وقبل كل شيء — قاعدة للسلوك .

أما الحقيقة ، فإنها معرفة محضة ،

على أن « الباطن ، لا يعنى فقط الحقيقة ، وإنما يعنى كذلك السبل

الموصلة إليها ، أعنى : الطرق ، التي تقود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة .

(١) هذا الفصل لخصناه عن بحث للعارف بالله المرحوم الشيخ عبد الواحد

يحيى ، وقد كتبه بالفرنسية ، ونشر في مجموعة « الإسلام والعرب ، سنة ٤٧ .

وقد نشرنا البحث كاملاً في كتابنا : « الفيلسوف المسلم ، الذي تحدثنا فيه عن حياة الشيخ عبد الواحد ، وعن بعض آرائه .

وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية : الدائرة ومركزها ، قلنا : إن الطريقة هي الخط الذاهب من الدائرة إلى المركز ، وكل نقطة على الدائرة هي مبدأ الخط . وهذه الخطوط التي لا تحصى ، تنتهي - كلها - إلى المركز ؛ لأنها « طرق » ، وهي طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطبايع البشرية ؛ ولهذا يقال « الطرق إلى الله كنفوس بني آدم » .

ومهما اختلفت فالهدف واحد ؛ لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ، وإلا حقيقة واحدة .

على أن هذه الاختلافات الموجودة في المبدأ ، تزول شيئاً فشيئاً ، مع زوال الإنسيّة ، وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا ، تزول فيها « صفات العبد » التي ليست إلا سجناً : « الغناء » ، فلا تبقى إلا الصفات الربانية : « البقاء » .

والطريقة والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما : التصوف .

وهو ليس مذهباً خاصاً ؛ لأنه الحقيقة المطلقة .

وليست الطرق مدارس مختلفة ؛ لأنها طرق أي : سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة : « التوحيد واحد » .

الصوفي :

ويجب أن يلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفي ، اللهم إلا إذا كان ذلك منه جهل محض ؛ لأنه بذلك يبرهن على أنه - حقيقة - ليس بصوفي ؛ وذلك أن هذه الصفة « سر » بين الصوفي وربّه .

ويمكن أن يقول الإنسان عن نفسه : إنه متصوف ، وهو عنوان يطلق على « السالك » ، في أي مرحلة كان . والسكن الصوفي بمعناه الحقيقي ، لا يطلق إلا على من بلغ درجات عليا .

أصل كلمة صوفى :

أما أصل هذه الكلمة : « صوفى » ، فقد اختلف فيه اختلاف كبير ، ووضعت ، لبيانها ، فروض متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض ، وكلها غير مقبولة ، لأنها فى الحقيقة تسمية « رمزية » ، وإذا أردنا تفسيرها ، ينبغى أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها . وإنه لمن الرائع ، أن نلاحظ ، أن القيمة العددية لحروف « صوفى » ، تماثل القيمة العددية لحروف : « الحكمة الإلهية » . فيكون الصوفى الحقيقى إذاً ، هو الرجل ، الذى وصل إلى الحكمة الإلهية . إنه « العارف بالله » ، إذ أن الله لا يعرف إلا بالله . وتلك هى الدرجة العظمى « السكينة » ، فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

التصوف عربى إسلامى :

من كل ما سبق ، يمكننا أن نستنتج أن الصوفية ليست شيئاً أضيف إلى الدين الإسلامى ، إنما ليست شيئاً أتى من الخارج فالصق بالإسلام ، وإنما هى — بالعكس — تكون جزءاً جوهرياً من الدين ؛ لذلك كانت فروضاً رخيصة ، تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى : يونانى ، أو هندى ، أو فارسى ، وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات ، التى ترتبط باللغة العربية ، ارتباطاً وثيقاً .

وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية ، وما يماثلها فى البيئات الأخرى ، فتفسير هذا طبيعى ، لا يحتاج إلى فرض الاستعارة : وذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها ، وإن اختلفت فيما تلبسه من صور .

ويجب أن لانعطى عناية كبيرة — حينما نتحدث عن أصل التصوف — لتلك المناقشات التى لا تنتهى بين مؤرخى التصوف ، خاصة بتحديد الفترة

الزمنية ، التي وجدت فيها لفظة « صوفى » ، فإن الشيء قد يوجد قبل اسمه الخاص ، سواء وجدت تحت اسم آخر ، أو وجد ولم تكن هناك الحاجة لتسميته .

وعلى كل حال ففنيصل الحق في مسألة أصل التصوف هو ما يأتي :
إن السنة ترشد في صراحة لا لبس فيها إلى أن الشريعة والحقيقة ، كليهما ، ينبعان — مباشرة — من تعليمات الرسول ، صلوات الله عليه . والواقع أن كل طريقة صحيحة تعتمد على « سلسلة » تصل دائماً إلى الرسول .
والحق أن التصوف ، عربى إسلامى ، كما أن القرآن — الذى يستمد التصوف أصوله منه مباشرة — عربى إسلامى .

وإذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فمن الطبيعى ألا يوجد قبل أن يفهم القرآن ، ويفسر ، ويتدبر . ولقد فسر القرآن أولاً لغويا ، ومنطقياً ، وكلامياً ، ولكن تفسيره صوفياً ، اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق ، وشمول .

وإذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معا ، فلا يمكن أن يوجد بينهما تناقض ، أو اختلاف ما . وكيف يوجد الاختلاف ، ومصدرهما واحد؟ وكيف يوجد الاختلاف ، والحقيقة لا تقوم إلا على الشريعة فى أساسها وفى سندها ؟

من شروط التصوف :

ولا بد فى التصوف من شرط جوهرى ، هو « التأثير الروحى ، أو بتعبير أدق : « البركة » ، وهى لا تتأتى إلا بواسطة « شيخ » .

ومن هنا كانت « الطرق » .

ومن هنا كانت « السلسلة » .

وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ ، إلى مرید يوشك أن يصبح شيخاً ، فيؤثر بدوره في مرید ، أو مریدين ؟

ونختتم هذه الكلمة بملاحظة جوهرية تتعلق بطبيعة التصوف وهي : أن التصوف ، ليس عملاً علمياً ، ولا بحثاً نظرياً ، إنه لا يُتعلَّمُ بواسطه الكتب على الطريقة المدرسية ، بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم ، لا يستخدم إلا كحافز مقو للتأمل ، والإنسان لا يصير — بمجرد قراءته — متصوفاً ، على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلاً لفهمه .

ولأجل أن يسير الإنسان في طريق التصوف لا بد له من :

١ — استعداد فطري خاص لا يغنى عنه اجتهاد ، أو كسب :

٢ — الإنتساب إلى « سلسلة » صحيحة ، إذ أن البركة التي تحصل من الإنتساب إلى السلسلة الصحيحة شرط أساسي ، ولا يصل الإنسان بدونه إلى أى درجة من درجات التصوف ، حتى البدائية منها .

٣ — ثم يأخذ المتصوف الطيب الفطرة ، الذي باركه شيخه ، في الجهاد الأكبر : التأمل الروحي ، وفي الذكر : أى استحضار الله « في كل ما يأتى ، وما يدع ، وفي تركيز الذهن في الملأ الأعلى فيصل — موفقاً — من درجة إلى درجة ؛ حتى يصل إلى أعلى الدرجات ، وهي حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت ، فيصبح رهبانياً .

ذلك هو الصوفي ، الحقيقي .

من أسباب التصوف الشك

يعرف كثير من الناس التصوف : بأنه المذهب القائل بالإلهام ،
والبصيرة ، أو إذا شئت فبالعلم الألهي : أى بهذا النوع من المعرفة اليقينية ،
الذى لا يتصور فيه الشك ، ولا تعبت به السفسطة ، وإذا كان هذا التعريف
غير منطبق تماماً على حقيقة التصوف فى جميع أقطارها وجوانبها ومظاهرها ،
فإنه — لا ريب — يرينا ما للمعرفة اليقينية من أهمية : فتصفية الروح ،
ليست غرضاً من أغراض الصوفية إلا لأنها تمهد للاتصال بالله ، ولتلقى
المعرفة عنه . ولا ريب أن معرفة تأتى عن طريق الإلهام ، أو ، إذا شئت ،
فمن طريق الألوهية ، هى معرفة لا يتطرق إليها الهدم ، ولا تنهار أمام حجج
المنطق . وأنت تحاول عبثاً ، إذا أردت أن تبعث الشك فى نفس الصوفى ،
أو أن تحول عن رأيه ، إذ كيف يحيد عن فكرة ، يعتقد أنه تلقاها عن الملائك
الأعلى ، فى فترة صفت فيها روحه ، وتطهرت ؟ وكيف يكون على باطل ،
وهو يعمل وفق إرادة وتعاليم عليا سامية ؟

على العكس من ذلك تماماً نرى الشاك : فهو شخص لا يعترف بحقيقة ،
أو لا يعترف بأن هناك طريقاً يوصلنا إلى معرفتها ، على فرض وجودها ،
وعبثاً تحاول أن تقنعه بعقيدة ما ، إذ هو لا يقتنع إلا بالشك ، ولا يرضى
عن رأيه بديلاً . وإن يدهش لشيء ، فإنما يدهش لعدم اقتناعك أن بفكرته
فى الشك ، التى يعطيك على صحتها البرهان ، تلو البرهان ، والحجة تلو الحجة ،
حتى لتعترف « فى النهاية » بأن رأيه له وجاهته ، وله قيمته .

يقين مطلق من جانب ، وشك عميق من جانب آخر ، اختلاف شاسع ،
بل تعارض وتضاد .

رغم ذلك — وبالرغم من أن محاولة التقريب ، وعقد الصلة بين هذين المذهبين ، تبدو لكثير من الناس غريبة — فإنى أعتقد أن الخلاف بينهما أقل مما تتصور ؛ ذلك أن الصوفي ، والشاك ، يتفقان في المبدأ الذى بنى عليه كل منهما اتجاهه . أريد أن أقول : إن الحالات التى تؤدى بالصوفي إلى التصوف ، هى ، فى الأغلب الأعم . نفس الحالات التى تؤدى بالشاك إلى رأيه . هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فإن الشك نفسه كثيراً ما يؤدى إلى التصوف .

* * *

كانا يعلم أن هناك طريقين للمعرفة : هما الحواس ، والعقل : فمعرفة بالشىء ، تنتج عن أنى أراه ، وأحسه ، أو أنى أستنتجه ، بدليل عقلى . كثير من الناس — بل الأغلبية الساحقة منهم يأخذ المعرفة الناشئة عن هذين الطريقين قضية مسلمة ، لا تقبل جدلاً ، ولا يحيط بها شك . ولكن فى العالم أيضاً ذلك الشخص ، الذى يرى أنه ما دامت الحواس تخطئ ، فهى ليست أهلاً للثقة : إنى أرى السراب فأحسه ماء ، وتسيطر على فكرى صورة من الصور ، وتقوى هذه السيطرة ، فأرى الصورة بمثابة أمامى ، والمرضى يرى خيالات ، لا حقيقة لها ، والخائف يرى أشباحاً ، ويسمع أصواتاً ، لا وجود لها . إن الأمثلة على ذلك لا تحصى ، وكل يوم ، بل كل فترة ، تعطينا دليلاً على خطأ الحواس ، فهل بعد هذا نثق فيها ، أو نثق بمعرفة تأتى عن طريقها ؟ كلا .

بقى العقل . ولكن ما قيمته ؟ كلٌّ ينسب إليه ، ومع ذلك فلا تجد اثنين على اتفاق تام .

إن هذه المذاهب الفلسفية التى لا تكاد تعد ، كلها مبنية على العقل ، وكلها مؤسسة عليه ، وقائمة به ، وكلها جذابة أخاذة تغرى بقوة أدلتها ،

وتستولى عليك بصرامة منطقها ، ومع ذلك فلا تكاد تتفق في شيء ما .
ثم ماذا؟ ألم يبرهن أحدهم ببرهان عقلي ، منطقي ، على أن الأرنب
لا يلحق بالسلحفاة - مهما أسرع في العدو - إذا بدأت السلحفاة قبله
وسبقته بمتْر ، أو مترين ؟

ألم يبرهن أحدهم على أن السهم في سيره لا يتحرك ؟
وأنت نفسك أليست آراؤك في حالة التشاؤم ، غيرها في حالة أخرى ،
وفي حالة السرور ، غيرها في حالة الحزن ؟

ثم البراهين ، التي ترى قوتها ، وتعتقد فيها في حالة الحلم ليست أقل
من أن يقال عنها : إنها براهين عقلية . . . وهكذا ، إذا أخذت في تعداد
الأمثلة على عدم مقدرة العقل ، فإنك لا تقف عند حد .

* * *

أخطأت الحواس فلا ثقة فيها . وأخطأ العقل فلا ثقة به . فهل معنى
ذلك أن لا سبيل إلى المعرفة الحقيقية ؟ نعم ، يجهينا الشاك . وسنمكك إلى
الأبد محكوماً علينا ، بالجهل ، أو ، إذا شئت ، بعدم المعرفة الصحيحة .
ولكن الصوفي - بعد أن سار هذه الخطوات ، ووصل إلى الشك
في قيمة الحواس ، والعقل ، وفي قيمة المعرفة الناشئة عنهما - يعود ، فيثبت
المعرفة عن طريق آخر : هو الإلهام ، أو البصيرة ، أو العلم اللدني ،
كما يقولون .

قطع الصوفي ، والشاك ، المرحلة الأولى - إذا - معاً فوصلا إلى الشك
فرضى به أحدهما ؛ واقتنع بأن لا مطمح وراءه ، وخطا الآخر خطوة
أخرى ، خطاها ، لا يوضع لنفسه منطقاً ؛ أو منهجاً يسير عليه ، ليعتصم
من الزلل الذي توقعه فيه حواسه ، ويوقعه فيه عقله - كما يفعل الفلاسفة -
وإنما ليصل إلى معرفة من طريق آخر ، لا يتسرب إلى نتائجه شك .

* * *

لنلق الآن نظرة على النفس الإنسانية ، فنرى أنها لا تحب الإقامة على الشك ، ولا ترغب في اتخاذ الإنكار مذهباً ، وقاعدة ، وأنها — على كثرة حجبها للمعرفة ، وشغفها بالاستطلاع — تريد دائماً أن تجعل اليقين قاعدة آرائها ، وأعمالها .

وزى — أيضاً — أن من أشق أوقات الإنسان ، تلك الفترات التي تضطرب فيها نفسه ، وتتذبذب آراؤه ، ويختلط عليه الأمر .

هذه الحالة تبعث في النفس الضيق ، والكآبة ، فإذا اشتدت ، واستمرت سببت أحياناً الانتحار ، وأحياناً الجنون ؛ ولسكنها — أيضاً ، في كثير من الأحيان — تؤدي إلى التصوف .

نعم ! تؤدي إلى التصوف : حيث يجد الشخص ملجأ تستقر فيه نفسه ، وتهدأ ، وتسكن ؛ وحيث يجد اليقين ، والإيمان ، والعلم النابت .

لقد كان « الحارث بن أسد المحاسبي » متعطشاً إلى المعرفة ، والبحث ، والاضطلاع ، وإلى الوصول لرأى لا يعتموره الشك ، إلى رأى يقيني ، ثابت لا يتزلزل . ولسكنه بعد أن بحث ، زاد شكاً — بدل أن يزيد إيماناً — واضطربت نفسه ، وخشى أن يأتيه الموت فجأة ، قبل أن يعتصم بحبل الله المستقيم : فكمد وجد ، ثم ينس من أن يصل إلى النتيجة .

ولسكن الله وفقه في النهاية ، إلى الإتصال بقوم صالحين ، فسكن إليهم وأخذ . سكن إليهم ، وأخذ ، لا لأن منطقهم أوجد عنده اليقين ، ولا لأن براهينهم بعثت في نفسه الاطمئنان ، وإنما لأن سيّاهم على وجوههم تبعث الثقة ، وتهدى إلى الرشاد .

لندع المحاسبي نفسه يصور حالته — والنص الذي نثبته الآن ، من مخطوط له بدار السكتب المصرية ، لم يطبع بعد ، اسمه « النصائح » — وقد تعمدت إثبات هذا النص كاملاً ، لما بينه وبين كلام الغزالي في كتابه « المنقذ من

الضلال ، من شبه ، يهيم كل باحث في التصوف معرفته .

قال المحاسبي - بعد مقدمة موجزة - أما بعد ، فقد انتهى إلينا أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرهما ؛ فلم أزل - برهة من عمرى - أنظر اختلاف الأمة ، وأتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد ، وأطلب من العلم والعمل ، واستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل ، بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة ، ونظرت في مذاهبها ، وأقوايلها ، فعلقت من ذلك ما قدر لي ، ورأيت اختلافهم بجرأ عميقاً ، قد غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصاية قليلة ، ورأيت كل صنف منهم ، يزعم أن النجاة في تبعهم ، وأن الهالك من خالفهم .

ثم رأيت الناس أصنافاً : فمنهم العالم بأسر الآخرة ، لقاؤه عسير ، ووجوده عزيز .

ومنهم الجاهل ؛ فالبعد عنه عنيمة .

ومنهم المشبه بالعلماء ، مشغوف بدنياه ، مؤثر لها .

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتتمس بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا .

ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل .

ومنهم متشبه بالنسك ، متجر بالخير ، لا غناء عنده ، ولا بقاء لعلمه . ولا معتمد على رأيه .

ومنهم منسوب إلى العقل ، والدهاء ، مفقود الورع والتقوى .

ومنهم متوادون ؛ على الهوى يتفقون ، وللدنيا يتبادلون ، ورياستها يطلبون .

ومنهم شياطين الإنس ، عن الآخرة يصدون ؛ وعلى الدنيا يتكالبون ؛

وإلى جمعها يهرعون ؛ وفي الاستسكاتار منها يرغبون ، فهم في الدنيا أحياء ؛
وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منسكرك ؛ والسوء معروف .

فتفقدت في الأصناف نفسى ؛ وضقت بذلك ذرعا ، فقصدت إلى هدى
المهتدين ؛ بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم ؛ وأعملت الفكر ؛
وأطلت النظر .

فتبين لى فى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجماع الأمة ، أن اتباع
الهُوى يعمى عن الرشد ، ويضل عن الحق ، ويطيّل المسكك فى العمى .
فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبى .

ووقفت عند اختلاف الأمة ، مرتاداً لطلب الفرقة الناجية ، حذراً
من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ، متحذراً من الاقتحام قبل البيان ،
والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل ، أن سبيل النجاة فى التمسك
بتقوى الله ، وأداء فرائضه ، والورع فى حلاله ، وحرامه ، وجميع حدوده ،
والإخلاص لله تعالى ، بطاعته ؛ والتأسى برسوله ﷺ .

فطلبت معرفة الفرائض ، والسنن ، عند العلماء فى الآثار ، فرأيت اجتماعاً ،
واختلافاً ، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن الفرائض والسنن ، عند العلماء
بالله ، وأن الفقهاء عن الله العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه ، المتأسين
برسوله ﷺ المؤثرين الآخرة على الدنيا : أولئك المتمسكون بأمر الله ،
وسنن المرسلين .

فالتست من بين الأمة هذا الصنف ، المجتمع عليهم ، والموصوفين ،
أفقوا آثارهم ، وأقتبس من علمهم ؛ فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم
مندرساً ، كما قال رسول الله ﷺ : (بدأ الإسلام غربياً ، وسيعود غربياً ،
كما بدأ) فطوبى للغرباء ، وهم المنفردون بعلمهم .

ف عظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت أن يفجأنى
على اضطراب من عمرى لاختلاف الأمة .

ف انكشيت فى طلبى عالماً لم أجد لى من معرفته بدأ ، لم أقصر فى الاحتياط
ولم أن فى النصيح .

فقيض لى الرءوف بعباده ، قوما وجدت فىهم دلائل التقوى ، وأعلام
الورع وإيثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل
أئمة الهدى : مجتمعين على نصيح الأمة ، لا يرجون أحداً فى معصيته ، ولا
يقنطون أحداً من رحمته ، يرضون أبدأ بالصبر ، على البأساء والضراء ،
والرضى بالقضاء ، والشكر على النعماء يحبون الله تعالى إلى العباد ، بذكرهم
أياديه وإحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى ، علماً بعظمة الله
تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلماً بكتابته وسنته . فقماء فى دينه ، علماء بما يجب
ويكره ، ورعين فى البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء ، مبغضين
للجدال والمرء ، متورعين عن الإغتياب ، والظلم ، والأذى ، مخالفين
لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالمسكين لجوارحهم ، ورعين فى مطاعهم
وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، بجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتازين
بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح ، زاهدين فى الحلال ، مشفقين من
الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين ببنهم مؤثرين على أنفسهم من دون
غيرهم ، لسكل امرىء منهم شأن يغنيه . علماء بأمر الآخرة ، وأهويل
القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم العقاب ؛ ذلك أورثهم الحزن الدائم ، والهـم
المضنى ، فمشغلوا عن سرور الدنيا ، ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات ، وحددوا للورع حدوداً ، ضاق لها
صدرى ، وعلمت أن آداب الدين ، وصدق الورع ، بحر لا ينبجو من الغرق
فيه شبهى ، ولا يقوم بحدوده مثلى .

فتبين لي فضلهم ، واتضح لي نصحهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق
الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصاييح لمن استضاء بهم ، والهادون
لمن استرشدهم .

فأصبحت راعباً في مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قابلاً لأدابهم ، محباً
لطاقمهم ، لا أعدل بهم شيئاً ، ولا أوثر عليهم أحداً .

ففتح الله لي علماً انفتح لي برهانه ، وأنار لي فضله ، ورجوت النجاة لمن
أقر به ، أو انتحل به ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج
غيمن خالفه ، ورأيت الرين متراكماً على قلب من جملة ، وجحدته ، ورأيت
الحجة البالغة لمن فهمه ، ورأيت انتحاله ، والعمل بحدوده ، واجباً على ،
واعتقدته في سريرتي ، وانطويت عليه بضميري ، وجعلته أساس ديني وبنيت
عليه أعمالي ، وتقبلت فيه بأحوالي .

وسألت الله عز وجل أن يوزعني شكر ما أنعم به علي ، وأن يقويني
على التيام بحدود ما عرفني به ، مع معرفتي بتقصيري في ذلك ، وأني لا
أدرك شكرة أبداً . انتهى كلام المحاسبي .

وليس المحاسبي بدعاً في ذلك ، وإنما يتفق معه الإمام الغزالي . بل الإمام
الغزالي أوضح وأدق .

حاول أن تصور معي بالضبط حالة الإمام الغزالي النفسية ، فستجده متلهفاً
على المعرفة محباً للاطلاع ، والدرس والبحث ، غارقاً في محيط الفلسفة والعلم .
ولسكنه مع كثرة اطلاعه ، وتنقيبه لم يجد في المذاهب الفلسفية ما يرضيه ،
ولم يجد في الأدلة العقلية المؤسسة عليها هذه المذاهب ما يقنعه .

ورأى أن من العبث أن يبدأ في تأليف مذهب فلسفي جديد ، إذ مصير
ذلك — حتماً — مصير ما سبق من المذاهب ، التي إن أخذت باللباب كثير
من الناس ، فإنها لا تثبت أمام النقد الصارم ، والتي تبعث التفرقة ؛ إذ ليس

فيها من القوة البرهانية ما يقنع الجميع .

ليس هناك ألا الشك إذأ .

وفي الواقع ، لقد شك الإمام الغزالي : شك في الحواس ، وشك في العقل ، وشك في ما ينتج عنهما من معرفة .

ولكن نفسه اضطربت ، ونحل جسمه ، وضاق بالحياة ذرعاً ، ولم يجد ملجأ ، ولا عاصماً من هذه الحيرة ، وهذا الاضطراب ، إلا التصوف ؛ فوَجَّعَ بَابَهُ ، واطمأن إليه .

وكتابه « المنقذ من الضلال » الذي يقص فيه تطوره الفكري ، يصور هذا خير تصوير .

وكما يبدأ المحاسبي بحديث « ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة ، كذلك يبدأ الغزالي بهذا الحديث ، وتكاد بعض جملة تكون مأخوذة من كلام المحاسبي نصاً : بما دعا بعض المستشرقين إلى أن يذكر : أن الغزالي — في كتابته لكتابه هذا — تأثر بالمحاسبي ، في كتابته لمقدمة كتاب « النصائح » .

وسواء أكان هذا صحيحاً ، أم غير صحيح ، فما لا شك فيه أن الإمام الغزالي قرأ هذا الكتاب ؛ إذ أنه استشهد ببعضه في « الإحياء » .
والذي يعيننا الآن ، هو أن الإمام الغزالي — كما يُصَوَّرُ في كتابه — بدأ يشعر بعدم الاطمئنان ، حينما فكر في هذا الحديث الشريف ، وحينما رأى أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة في المذاهب ، على كثرة الفرق ، وتباين الطرق ، بجر عميق ، غرق فيه الأكترون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، وكل حزب بما لديهم فرحون .
لهذا أخذ الإمام الغزالي في البحث جهد طاقته ، ليصل إلى اليقين « الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبق معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط

والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، ثم يقول :
« وعلمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من
اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس
بعلم يقيني » .

« ثم فتشت عن علومي ، فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه
الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات ، ولكن :

« انتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان
في المحسوسات أيضاً » .

ثم أخذ الإمام الغزالي يذكر أسباب شكه في المحسوسات ، وفي
الضروريات وفي العقليات ، وقد ذكرنا طرفاً منه آنفاً .

واستمر الإمام على تلك الحالة « حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ،
وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة
موثوقاً بها ، على أمن ويقين » .

« ولم يكن ذلك بنظم دليل ، أو ترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى
في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف . فمن ظن أن الكشف
موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة » .

ولما سئل رسول الله ﷺ عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى « فمن
يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » ، فقال :

« هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » .

فقيل وما علامته ؟ فقال :

« النجافي عن دار الغرور ، والإناابة إلى دار الخلود » ، وهو الذي قال

عليه السلام فية :

« إن الله تعالى خالق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره » ، فمن ذلك

النور ينبغي أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الوجود الإلهي
في بعض الأحيان ، ويجب التردد له كما قال عليه السلام :
« إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها ، .
هذا الشك الذي حدا بالغزالي إلى التصوف ، كما حدا بالمحاسبى قبله ، هو
شك أتى من البحث وراء الحقيقة .

* * *

ولكننا لا نريد أن نقول : إن هذا النمط من الشك ، هو ، وحده أساس
التصوف ، وإنما نريد أن نقول : إن أساس التصوف - في الأغلب الأعم -
هو الشك على الإطلاق : سواء كان هذا الشك يتصل بالناحية الفكرية ،
أو بالناحية الاجتماعية ، أو بالناحية الوجدانية - فهذا الشخص الذي صدم
في عاطفة من عواطفه ، وكثيراً ما تكون عاطفة الحب ، تلك العاطفة
القوية ، الجارحة ، التي تهز النفس هزاً . والتي تؤدي كثيراً إلى الانتحار -
هذا الشخص الذي صدم في تلك الناحية قد تصل به الصدمة إلى الشك
في كل شخص ، أو إلى الشك في أن يجد مثاله الأعلى في هذه الحياة ، فينتجه
إلى حياة العزلة والانفراد ، أو يعتكف في مسجد ، أو في بيته ، عابداً مصلياً ،
طالباً من الله أن يكون عماده ، وأن يكون ملجأه ، وأن يصرف عنه السوء .
وهذا الشخص الرقيق المزاج ، الذي يرى في كل آونة ظلم الناس ، وفساد
الحياة ، والذي لا يجد في نفسه القوة على الجلاد والصراع ، والذي يصل
به الأمر في النهاية إلى الشك في المجتمع ، وفي أهله ، فيضيق بالحياة ذرعاً :
لا يجد مفرأ من أن يعتكف متأملاً مفكراً في مثل عليا ، أو في حياة
أخرى ، أو في ملائع أعلا ، صفت فيه النفوس : وتطهرت ، وسمت
عن كل دنس .

وهكذا إذا بحثنا في حياة هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم الصوفية ، فإننا
نجد غالباً في حياتهم نقطة الارتسكان : الشك .

الشك ومدارج السالكين

ولسكن تلك الحياة التي يتجهون إليها ، تلك الحياة الجديدة ، التي أخذت من النفوس كل مأخذ ، والتي اتجهوا إليها في تحمس وحرارة ، لا تزيل من أنفسهم الشك ، بجميع ألوانه . حقيقة إنها تزيل من أنفس هؤلاء الذين شكوا من الناحية الدينية ، الشك في تلك الناحية ، وتنسى الآخرين الشك الذي دفعهم إلى حياة التصوف دفعا .

ولسكن النفس التي تتجه إلى الحياة الدينية في حرارة وتحمس ، إنما تتجه نحو السكال ، من الناحية الدينية ، وهذا السكال أول ما يبدأ ، يبدأ بالتوبة ، ومن المعقول ، ومن المنطق ، أن ذلك الشخص الذي اتجه في تحمس إلى الناحية الدينية ، يرى في ماضيه كثيراً من الأخطاء ، فلا تهدأ نفسه ، ولا تستقر ، إلا إذا خضع لله ساجداً ، مستغفراً لنفسه . طالباً من الله الصفح والرضاء .

ولسكنه لا يكاد يتخطى تلك الفترة ، إلا ويعرض له الشك في كثير مما يتصل بحياته العادية ، اليومية ، ويكاد يتساءل في كل لحظة ، أهذا حلال ، أم حرام؟ طيب ، أم خبيث؟ حسن ، أم قبيح؟ يرضى الله ، أو لا يرضيه؟ ويتخرج في المأكل ، والمشرب ، والملبس ، وهذا هو «أورع» ، وسببه كما ترى الشك .

ولسكنه مهما تخرج في مأكله ، ومشربه ، وملبسه ، ومهما تحفظ واحتاط ؛ فإنه سيجد دائماً ، أن ذلك لا يكفي ، ويشك في كل لحظة ، وآونه ، ويندم على ما فات ، وتقوى في نفسه الحرارة الدينية ، فيرى أن كل ما يتصل بالحياة الدنيا ، إن هو إلا هو ، ولعب ، وضلال ، وباطل ، وأن خير طريق - إن أراد الهداية أو الرشد - إن هو إلى «الزهد» في تلك الحياة ، التي لا تساوى عند الله جناح بعوضة .

« توبة » ، ثم « ورع » ، ثم « زهد » ، تلك هي — بالتتابع — بعض ما يسميه « الصوفية » مقاماتهم .

ولكن السكّال — كما قلنا — ليس له من غاية ، أو من حد . نعم وصل صاحبنا إلى الزهد في تلك الحياة ، ولكن ! أهذا هو المطلوب ؟ إنه إنسان ، وطبيعته الحيوانية — مهما قويت إرادته — تجذبه إلى الحياة الدنيا ، وترغبه فيها وتبعث فيه السخط على حياته . ويحصل ذلك الصراع العنيف بين المادة والروح ، الذي صورة « أناطول فرانس » ، في رواية « تايس » ، تصويراً بديعاً ، وصورة « المحاسبي » ، في كتابه « بدء من أناب إلى الله » ، وفي كتاب « الرعاية » ، تصويراً دقيقاً إلى أقصى حد من الدقة .

هذا الصراع ، يبعث في نفس الصوفي اضطراباً لا مزيد عليه بل يبدأ الصوفي يشك في نفسه ، وفي قيمته الذاتية ، ويكاد يصل به الأمر إلى أن يعتقد في تخلي المعونة ، أو التوفيق الألهي عنه ؛ لأنه ليس أهلاً لها . ونجده في تلك الآونة يبكي ، ويتألم ، ويتضرع إلى الله أن يمنحه معونته ، وأن يصفح عنه ، إذا كان قد أخطأ بدون علم منه ، ويعترف بأن لا قيمة له في الواقع ، أمام تلك القدرة العظيمة ، وكل ما يرجوه ، أو يأمله ، إنما هو : أن يكون عبداً ، وأن يمنحه السيد شيئاً من عنايته ، أو توفيقه أو رضاه . يستمر صاحبنا كذلك فترة طويلة أو قصيرة ، وتثور روحه آوونه بعد أخرى ، على الناحية المادية ، تسكب من جماحها ، وتهدي من ثورتها ، حتى يصل إلى « الرضى » ، وهذا هو « المقام » الرابع ، وهو أرقى بدون شك من « الزهد » .

ولكن أذلك هو السكّال ؟

لم يقل الصوفي ، ولا يمكن أن يقول : إن معنى الرضى هنا انقطاع كل الرغبات والشهوات ، أو زوال الآمال والطموح ، كلا ! إنما معناه أن تلك الثورة التي كادت تودي بصاحبنا ، وتجمله يعود إلى حياته الأولى ، هدأت ، وانتصرت عليها الناحية الروحية .

وليس السبب في هذا - حسب رأيه - قوة إرادة، أو ذاتية، وإنما ذلك توفيق من الله، تلك معونة منه، أراد به خيراً، أراد به الهداية والرشد، فإذا يستحق ذلك الخالق، الذي أعانه من غير أن يكون في حاجة إليه، والذي هداه من غير أن يكون في تلك الهداية نفع للخالق جل وعلا؟ إنه إذا لم ينصرف إلى الله انصرافاً كلياً وجزئياً، كان مقصراً. وليس كل التقصير في مرتبة واحدة: فذلك تقصير في حق الإله، الذي منح الحياة، والذي أفاض النعم، والذي غمره باطمئنان النفس، وانتشله من الضلال، ورفعته إلى مكانة، منحه فيها معونته، وتوفيقه. ويبدأ الشك في خلجات نفسه، وفيما يبدو من دقائق الرياء ثم ينتهي إلى الانصراف المطلق - في حدود الإمكان - إلى تلك الذات العليا الكاملة.

ولكن هذه الذات - مهما فكر فيها، وتأمل - يجد دائماً في نفسه الرهبة منها، فيزیده ذلك انصرافاً إليها، ويجهد نفسه في ذلك الانصراف إلى الله، حتى إذا استمر في ذلك، منحه الله من فيضه، وتحولت الرهبة شيئاً فشيئاً إلى حب عميق، ثم إلى رؤية الله في كل ناحية، وفي كل جانب، أو في كل مكان، ثم إلى الفناء في تلك القوة، التي أخذت عليه سمعه، وبصره، فأعلن، أو أسر: «ما في الجبة إلا الله».

أما بعد؛ فإني لا أعتقد أني ابتعدت كثيراً، في كل ماسبق، في موضوع: الشك والتصوف، عن النص الآتي، بل أعتقد أن كثيراً مما سبق، لم يكن إلا شرحاً له.

والنص للسهروردي، ذكره في كتابه «عوارف المعارف»، في نهاية الفصل المعنون: «ماهية التصوف».

قال السهروردي: وأقوال المشايخ في ماهية التصوف، تزيد على ألف قول، ويطول نقلها، ونذكر ضابطاً يجمع جل معانيها، فإن الألفاظ

— وإن اختلفت — متقاربة المعاني ، فنقول :

« الصوفي ، هو الذى يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوب النفس .

ويعينه على هذه التصفية ، دوام افتقاره إلى مولاه ، فبدوام الافتقار ينقى من الكدر ، وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة وفرّ منها إلى ربه ، فبدوام تصفيته جمعته ، وبحركة نفسه تفرقه وكدره ، فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، قال الله تعالى :

« كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ، شُهَدَاءَ بِالْقَسْطِ ، وَهَذِهِ الْقَوَامِيَّةُ لِلَّهِ عَلَى النَّفْسِ ، هِيَ التَّحَقُّقُ بِالتَّصَوُّفِ .

قال بعضهم : « التصوف كله اضطراب ، فإذا وقع السكون فلا تصوف ، والسرف فيه : أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية ، يعنى أن روح الصوفي منطلقة منجذبة إلى مواطن القرب ، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها ، وانقلاب على عقبها ، ولا بد للصوفي من دوام الحركة ، بدوام الافتقار ، ودوام الفرار ، وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس . ومن وقف على هذا المعنى يجد فى معنى « الصوفى » جميع المتفرق فى « الاشارات » .

التصوف والدين الإسلامي

أللتصوف صلة بالدين ؟ الواقع أن الإنسان يصعب عليه أن يتصور صوفياً لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية وغايته دائماً - حسب ما نعلم - روحية : رضا الملائ الأعلى ، حب الله ، الاتصال به ، الفناء فيه . تلك هي الأغراض التي يسعى إليها أو إلى بعضها الصوفي ؛ لذلك لا يمكننا أن نتصور شخصاً ليس بمؤمن يسعى إليها ، وكل ما يمكننا أن نتصوره - وإن كان فيه شيء من الغرابة - هو تصوف الرجل الذي لا يؤمن إلا بالله ، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكاله ، والسعي وراء هذا الكمال ، وإذا : مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات ، حتى يصل الإنسان إلى أولى تلك الخطوات التي وضعتها سابقاً ، ثم ينتقل منها شيئاً فشيئاً نحو الكمال ، أو نحو المثل العليا .

ولعل حالة هؤلاء الأشخاص - الذين كانوا يسمون في الجاهلية بالحنفاء - مما يقرب فهم ذلك بعض التقريب ، وهم قوم رأوا كما رأى ديس بن ساعدة ، أن هذه السماء ذات الأبراج ، وهذه الأرض ذات الفجاج - إلى آخر ما قاله في خطبته - ترشد إلى أن هناك صانعاً ، مدبراً ، وإلى أننا لم نوجد على ظهر تلك البسيطة عبثاً .

وإذا كنا لا نعلم الكثير عن حياة هؤلاء القوم النفسية ، فإننا نعلم أن محمداً ﷺ لم يسجد لصنم ، ولم ينعس فيما انعس فيه أهل عصره ، وإنما كان في نفسه مثال أعلى ، غامض بدون شك أو مبهم لحياة أخرى روحية تخالف تمام المخالفة ما كان عليه أقرانه ومعاشره ، ولو صور لنا محمد ﷺ

ما كان يجول بخلدك قبل الرسالة، لرأينا حياةً روحيةً خصبة، فيها التأمل الروحي العميق، وفيها خضوع المادة للروح. وانهماها أمامها بسبب قوة تلك الإرادة، التي لم تفارق الرسول ﷺ في أشد لحظاته حرجاً.

تلك الناحية الروحية عند محمد ﷺ التي كانت تشتد فتسيطر عليه سيطرة كلية وجزئية، فتجمله يهرب من العالم: من تلك الحياة الدنيا، التي ليست إلا زينة، ولعباً، وتفاهراً، وتكاثراً بالأموال والأولاد... يفر منها ويعتزلها ويذهب إلى غار حراء، متأملاً مفكراً، تلك الحياة التي هذا شأنها ليست إلا تصوفاً لم تصقله - بعد - الرسالة، فتصل به إلى أسمى مراتبه.

لقد تناقش الناس كثيراً في تصوف محمد ﷺ، وسخر بعضهم، حينما كانوا يسمعون أن محمداً ﷺ أول صوفي في الإسلام، والواقع أن التصوف لا يعدو أن يكون جهاداً عنيفاً ضد الرغبات، ليصل الإنسان إلى السمو، أو إلى السكال الروحي: ليكون عارفاً بالله.

وليس من المحتم أن يكون من عناصره فكرة الاتحاد، أو الوحدة أو الحلول.

هذا هو، المحاسبي، الذي لا يشك في أنه من زعماء الصوفية، ليست عنده فكرة الاتحاد، أو الحلول، أو ما مشاكل ذلك من الحالات التي يشعر بها بعض الصوفية حينما تسيطر عليهم فكرة الله، فتأخذ بنفوسهم وحواسهم وتأخذ بكل ما فيهم من تفكير، فيرون، في النهاية، أنه:

أَيْنَا تُولُواوا كَفَّمَّ وَجَنَّهُ اللهُ،

« وأن الله معنا أينما كنا،

وأن « ما في العجبة غير الله ».

نعود فنقول: إذا كان ذلك - الاتحاد، والحلول، ووحدة الوجود - ليس من عناصر التصوف اللازمة له، وأن عناصره الأساسية - كما يتضح ذلك

من تاريخ الصوفية : المحاسبي، أو الغزالي، أو رابعة العدوية، أو كثير غيرهم -
ليس إلا الجهاد لرضاء الله ، وتزكية النفس حتى تعرف الله به ... إذا كان
الامر كذلك ؛ فإننا نعتقد - ولستنا في ذلك الرأي من المجددين - أن محمد ﷺ
كان أول صوفي في الإسلام .

* * *

بقى الحديث عن القرآن ، وقد كثر الكلام فيه أيضاً ، ومحط النزاع
هو أن القرآن ، كتاب دنيا ، وآخرة ، يدعو إلى هذه وتلك ، ويقول -
في صراحة وإيجاز - ولا تنس نصيبك من الدنيا . .
أما التصوف فهو توكل وزهد ، وليس له من هذه الحياة الدنيا قليل
ولا كثير .

والحقيقة أن كلا من هذين الرأيين يحتاج إلى تحديد ؛ فالقرآن ليس كتاب
دين ودنيا على الإطلاق ، والصوفي ليس رجل آخرة ، فقط ، على الإطلاق .
أجل ؛ إن القرآن يدعو إلى ألا ننسى نصيبنا من الدنيا ، وإلى أن نكون
أقوياء ، وإلى أن السن بالسن ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والجروح
قصاص ، وإلى أن الجهاد واجب على كل مسلم ، وأسس القرآن تشريعاً
لكثير من المشا كل الدنيوية .

كل هذا صحيح .

ولكننا لو نظرنا بتأمل ، لوجدنا أن الحياة الآخرة - في نظر القرآن -
خير وأبقى ، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم .
وأن الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر ، وأنها لا تساوي
عند الله جناح بعوضة .

وأن ما في القرآن من دعوة إلى الجهاد إنما هو لإعلاء كلمة الله .

وما فيه من الأخذ بنصيب من الحياة الدنيا إنما هو لأجل ألا يكون المسلم عالة على غيره .

وخير من الأخذ بالنار العفو والصفح .

ثم هو بعد ذلك يذكر بأن المؤمنين ، هم الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبیتون لرهبهم سجداً وقياماً ، إلى آخر ما في القرآن من آيات ، ترشد إلى أن الحياة في هذا العالم هي - حقاً - الحياة « الدنيا » ، وأن الآخرة خير وأبقى .

أما أن الصوفي رجل آخرة فقط فهذا أيضاً فيه كثير من الوهم ، معنى إشار الآخرة عند الرجل الصوفي أو على الأقل عدم التحديد ، فهذا الصوفي يتزوج ، ويدعو هو الآخر : بأن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن المؤمن القوي ، خير عند الله من المؤمن الضعيف ، وأن العيش من كسب حلال طيب ، خير من أن يتكفف الإنسان الناس ، أعطوه ، أو منعوه ، ولكنه مع ذلك يتمذهب بمذهب القرآن : « وللآخرة خير لك من الأولى » ، ومعنى إشاره للآخرة إذاً إنما هو أن يريد بكل عمل من أعماله وجه الله تعالى ،

وما دام الأمر كذلك ، فإننا نقول - ولسنا في ذلك أيضاً بمجددين - إن القرآن يدعو إلى التصوف ، ويحث عليه .
وأنه كان السبب في بعث التصوف الإسلامي .

* * *

ومهما يسكن من شيء فإن التصوف الصحيح الحق لا يخالف الإسلام .
يقول الجنيد - سيد هذه الطائفة وإمامهم ، على حد تعبير « القشيري » - :
« الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتسني أثر الرسول عليه الصلاة والسلام ، .

وقال : « من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقبدي به

في هذا الأمر : لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : « مذهبننا هذا مقيد بأصول الكتاب ، والسنة » :

وليس هذ مذهب الجنيد فقط وإنما هو مذهب كل أهل الطريقة
الحقيقيين : إنهم جميعاً يتخذون الرسول إماماً ، فينهجون نهجته ، ويسلكون
سبيله ، ويقشفون أثره ، وتتسبم أرواحهم هديه ، وكلهم من رسول الله
ملتبس ، عرفاً من البحر ، أو رشفاً من الديم .

نفعنا الله بهم .

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

(١)

في كل ميدان من الميادين نجد الأدعياء ؛ نجدهم في الميدان الديني ، وفي الميدان السياسي ، وفي الميدان العلمي ، ونجدهم كذلك في ميدان التصوف . وهدف هؤلاء الأدعياء معروف : إنه الاستفادة المادية من أقصر الطرق . وكما لا يضر الدين ، ولا يضر العلم ، أن ينتسب إليه الأدعياء المزيفون ؛ كذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف .

وكما أن الدين وللعلم حقائق معروفة ، وسمات معينة ، وحدودا من شأنها أن تظهر زيف المزيفين وباطل المبطلين ، كذلك الأمر ، في الجانب الصوفي . نقول هذا بمناسبة ما سمعناه حديثا عن بدعة ضالة أخذت تتسرب إلى بعض النفوس التي لم تتعمق في الجانب الديني عموما ، ولا في الجانب الصوفي خصوصا . هذه البدعة ترى أن الشخص الذي وصل إلى مرتبة معينة من المعرفة تسقط عنه التكاليف الشرعية ، فليس عليه صلاة ولا زكاة ولا حج . . . ولا غير ذلك مما يلتزمه المسلمون !!

ومن المؤسف أن تكون هذه الفكرة قد نشأت أول ما نشأت - في العصر الحاضر - بين رجال درسوا القانون والتشريع ؛ يزعمون أنهم وصلوا إلى درجة من المعرفة الصوفية العليا ، وإلى حد لا يجب عليهم فيه التكاليف الشرعية . وإذا بحثت عن مصدر هذه المعرفة التي وصلتهم فسترى عجايبا ؛ ستعلم أن مصدر هذه المعرفة : إنما هو الأرواح التي يستحضرونها ، فتلبس - فيما يزعمون - جسم الوسيط وتتقمصه ، وتكشف لهم عن الغيب من أزله إلى أبده ومن بدايته إلى نهايته ، ومن مشرقه إلى مغربه !!

وقد انتشرت بدعة تحضير الأرواح قبيحاً ونسبهم، يتحدثون عنها مصيحين ومسيين ، حتى لقد أصبحت دينهم الذي لا يدينون بغيره، ولا يتلقون الوحي عن سواه ، وأصبحت كلمة الأرواح عندهم ، تحمل محل القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ومن الغريب أنهم يدعون اتسابهم إلى التصوف، ويزعمون أنهم من كبار الصوفية ، ومن أساطين العارفين ، ومن عباقرة الملهمين .

وقد بلغ الأمر بأحدهم أن زعم ، في فترة من الفترات ، أنه من كبار الأولياء ، ثم لم يكفه ذلك ، فزعم أنه رسول ملهم ، ثم تجاوز ذلك إلى أنه عيسى عليه السلام ، ثم كان فيما بعد محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، ثم تخلص من البشرية جملة فزعم لأخصائه أن الألوهية حلت فيه ، والأرواح التي يستحضرها تؤيده في كل ما يزعم ، ولا ترى هذه الأرواح ، كما لا يرى هو ، في ذلك شذوذاً ولا تناقضاً ، وصدق الله تعالى ، إذ يقول فيه وفي أمثاله بمن يتصلون بالجن ، وينحرفون عن سواء السبيل :

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يُعْوِذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا .

ولعلك تتساءل . هل بين تحضير الأرواح والتصوف من صلة ؟

وجواب رجال التصوف في ذلك حاسم قاطع :

ليس هناك من صلة بين تحضير الأرواح والتصوف ، اللهم إلا إذا كانت هناك صلة بين المتناقضات .

إن رجال التصوف يعتبرون تحضير الأرواح عملة زائفة ، لأنها تتعامل مع الجن والشياطين ١١ ويتذكرون في هذه المناسبات قول الله تعالى :

هَلْ أُنبِئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ؟ نَزَّلَهُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، يُلَاقِيهِمْ مِنَ الشَّجَرِ الْمُنْعَمِ ، وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ .

وقوله تعالى .

« وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ
لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ، .

وليس من غرضنا هنا أن نتحدث عن تحضير الأرواح ، كظاهرة
خداعه ، وليس من غرضنا أن نتحدث عن التهريج والزيغ ، والضللال
والانحراف الذى يسود الأوساط التى تعمل على ترويجه ، وليس من هنا ،
أن نبين نشأتها التاريخية فى الغرب بين الأوساط اليهودية التى روجت لها ،
وأنفقت فى سبيل نشرها الأموال الطائلة ، لأغراض وأهداف يعرفها
المحيطون بسر انتشار هذه الدعوة : « تحضير الأرواح » .

إن غرضنا الآن إنما هو بيان موقف الصوفية من مسألة : « إسقاط
التكاليف الشرعية » ، وهى مسألة لم تنشأ بين بعض من يزعم التصوف فى العصر
الحديث ، وليس لهم حتى فضل السبق فى الباطل ، إن كان السبق فى الباطل له فضل .
إنها ضلالة قديمة نشأت فى أوساط متحللة انتسبت إلى التصوف انتسابا
باطلا ، وحاربها يمثلو التصوف فى كل عصر وفى كل بيئة .

ومما لا شك فيه أن القول الفصل فى كل مشكلة من المشكلات إنما يرجع
فيه إلى الذين يمثلون الموضع الذى تنتسب إليه المشكلة .

وإذا رجعنا إلى زعماء التصوف الذين لا يختلف فى زعامتهم أثناء ،
نجدهم - سواء فى ذلك القديماء منهم والمحدثون - ينكرون الفكرة إنكارا
تامًا ، ويرونها زيفًا وضلالًا وانسلاخًا عن الدين بالكليّة .

وسنتحدث عن آراء بعض القديماء فى الموضوع ، ثم نفصل ، نوعًا ما ، رأى
الشيخ عبد الواحد يحيى ، وهو زعيم الصوفية فى العصر الحديث دون منازع .

قال أبو يزيد البسطامي لأحد جلسائه :

« قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية - وكان رجلا مشهورا بالزهد - فضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد ، رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : « هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ، ﷺ ، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ١٩ » .

ومن كلام أبي يزيد :

« ولو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرتقى في الهواء فلا تغفروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة ؟ » .

ويقول سهل التستري معبراً عن أصول التصوف : « أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتتاب ، والافتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصي ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » .

ويقول الجنيد - سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تعبير القشيري :

« من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال :

« علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقال :

« الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتنى أثر الرسول عليه

الصلاة والسلام وأتبع سنته ولزم طريقته » .

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال :

« أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب

إلى الله عز وجل ،

فقال الجنيد :

« إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمة ،
والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا . »

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الغزالي ، فإننا نجده يقول ، فى شىء من التفصيل ،
فيه دقة ، وفيه استدلال غاية فى القوة :

« وأعلم أن سالك سبيل الله تعالى ، قليل ، والمدعى فيه كثير ، ونحن
نعرفك علامتين له :

العلامة الأولى : أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع
موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً ، وإقداماً وإحجاماً ، إذ لا يمكن سلوك
هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا من وأظب
على جملة من النوافل ، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض ؟ ١١٩

فإن قلت : فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى ينحط عنه فيه بعض
وظائف العبادات ، ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ
من التساهل فى هذه الأمور ؟

وأقول لك : أعلم أن هذا عين الغرور ، وإن المحققين قالوا :

« لو رأيت إنساناً يطير فى الهواء ويمشى على الماء ، وهو يتعاطى أمراً
يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان ، وهو الحق . »

فإذا ما انتهينا أخيراً إلى أبى الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه ، فإننا
نجده يقول :

« إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ،
ودع الكشف وقل لنفسك : أن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب
والسنة ولم يضمها فى جانب الكشف ، ولا الإلهام ، ولا المشاهدة ، إلا بعد
عرضه على الكتاب والسنة . »

والصوفية يتبعون فى كل هذا ، المنصوص القرآنية والسنة القولية

والعملية للرسول ﷺ ، وهم يعلمون — لا شك — البديهيـات التاريخية :
من أن الرسول ﷺ ، كان المثل الأعلى في أداء الشعائر إلى آخر لحظة
من حياته الطاهرة .

هذا رأى القدماء وستتحدث عن رأى الشيخ عبد الواحد فى كلمة تالية
إن شاء الله تعالى، وخير ما نختتم به هذه الكلمة الآن الحديث النبوى الكريم:
« سئل النبي ﷺ عن قوم تركوا العمل بالدين وأحسنوا الظن فى الله .
فقال : كذبوا ؛ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

التصوف والتحلل من الشريعة الاسلامية

(٢)

« رأى المرحوم الشيخ عبد الواحد يحيى^(١) »

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون في ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفي ، وهذا في الواقع استعداد نفسه لا يوجد إلا في الغرب الحديث .

ولا شك في أن أسباب ذلك متعددة ، ولا يعنينا هنا البحث في مدى المسؤولية التي تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم الذين يميلون إلى إنكار كل ما يتجاوز حدود الشريعة في مظهرها الحرفي ، فليس ذلك جوهر بحثنا هنا .

بيد أنه من المدهش أن بعض من يزعمون الانتساب إلى التصوف يقعون فيما وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ؛ ذلك أنهم

(١) الشيخ عبد الواحد يحيى من كبار المفكرين العالميين ، نشأ في فرنسا كأوليبيكيا ، وانتهى به البحث إلى الإسلام والتصوف ، ومارس التصوف نظرياً وعملياً ، حتى ليعد أكبر الحكماء في العصر الحديث .

وقد توفي بالقاهرة منذ بضعة سنوات .

وترجمت كتبه إلى اللغات الحية .

وأثره في الغرب كبير ، إلى درجة أن كثيراً من الجمعيات في أوربا كونت باسمه لتتابع أثره وتحذو حذوه .

وهو في هذه الكلمة يكتب عن تجربة وخبرة وممارسة لا عن وجهة نظرية تحسب .

ينكرون ضرورة الشريعة أو يهملون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلي الشريعة يجهل التصوف ، وإن كان جهله لا يبرر إنكاره ، ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعي أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة ، ولو من جانبها العملي ، ذلك أن الأكثر ، وهو : « التصوف » يتضمن بالضرورة الأقل ، وهو : « الشريعة » .

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفي ، إلى الشريعة ، من حيث عدم أهميتها ، وعلى الخصوص ، أهمية الجانب العملي منها بالنسبة له . . . هذه النظرة تتضمن ، ولو نظرياً ، تقليل أهمية الجانب العملي في التصوف نفسه . وفي هذا الخطورة كل الخطورة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً ، أن يتوفر للشخص الذي عنده هذه الفكرة ، الاستعداد الصوفي ، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاماً كلياً قبل أن يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه ، بالنسبة للجانب الصوفي .

إن تقليل شأن الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التي لا تبالي بما أنزل الله . وإعادة تكوين الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة في طريق السالكين .

وتجاهل الناحية العملية : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث على الخصوص ، ومن الطبيعي أن يقوم الجو الديني الذي يعيش فيه الغربيون عقبة في سبيل فهمهم للجانب العملي من الشريعة وممارستها له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الديني ، هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا ، وهو السبيل إلى عودتهم إلى النهج المستقيم ، أعني التزام الشريعة .

قلنا : إن الاتجاه النفسي الذي نتحدث عنه هنا : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث . وفي الواقع لا يمكن أن يوجد هذا الاتجاه في الشرق ؛ ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لا تزال مسيطرة في بيئاته .

ثم إن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالا يجعل منهما مظهرين لشيء واحد ، أحدهما خارجي والآخر داخلي ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن . لذلك كان ما يوجد في الغرب الآن ، من جماعات تدعى أنها على النهج الصوفي وهي مع ذلك لا ترتكز على أية شريعة إلهية ، مجرد خداع ، ومن البديهي أن هذه الجماعات — ومن وجهة النظر الصوفية الصحيحة — ليست على شيء .

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول .

إن الإنسان لا يشيد القصر في الهواء ، إنه لا يشيده على غير أساس ، وكل فكرة لا ترتكز على أساس من السنة الصحيحة إنما هي بناء في الهواء ، إنما بناء على غير أساس .

والبناء الذي يمكن أن يبقى على الدهر لا بد له من أساس مدعم ، وعلى الأساس يرتكز البناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هي الأساس الذي لا بد منه لكل سالك ، وكالأساس تماما ، لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك : إنه كلما سار المتصوف في طريقه واستغرق فيه ، بدت له ضرورة الشريعة واستنارت معرفته بها ، وأصبح فهمه لها أكثر عمقا وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها دون أن يضرروا بسهم في الميدان الصوفي ؛ ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجي ، ولكن الصوفي يعيش في جوها الروحي ، ويحيها ، إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذي لا يعتنق شريعة صحيحة ولا يلتزمها ، لا يمكن أن يحيا

إلا حياة دنيوية بجمته ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين ، فضلا عن أن يطلق عليه وصف الصوفي .

على أن الغربيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومي ، كما هو شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لا يمكن أن يوصفوا بأنهم متدينون ، وإن آمنوا بعباسي وأدوا الشعائر السكسنسية .

وإذا كان لا يُقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه دون أن يجعل للشرعة السيطرة على قياده ، فإنه لا يقبل من باب أولى من رجل التصوف أن يزعم انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .
وهناك ، لاشك ، نوعان من الحياة : حياة دينية وحياة دنيوية ، ومع ذلك فالفرق بينهما إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان عن الأعمال التي يؤديها .

أريد أن أقول : إن الأعمال في نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية وإنما يتأتى لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها ؛ وقد يكون العمل واحداً في نوعه ويؤديه شخصان فيوصف عند أحدهما بأنه ديني وعند الآخر بأنه دنيوي ، فإن كان القصد « الله ، فالعمل ديني وأن كان القصد شيئاً آخر فالعمل دنيوي ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ، » .

ومن البديهي أن الحديث في أوله عام بالنسبة لكل الأعمال ، وأن مسألة الهجرة فيه : تطبيق جزئي لقضية عامة .

وفي العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا ، بل لم يكن

هناك مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه ، وإنما نشأت هذه
الفكرة حينما تدهورت الإنسانية وانحطت شيئاً فشيئاً ، وهانحن أولاء
قد وصلنا في هذا التأخر إلى أن الغرب حالياً يصعب عليه كل الصعوبة أن
يفهم فكرة (ضرورة سيادة الروح الدينية في مجتمعاته) ؛ إنه على نهج
انفصالي لا يوجد في الحياة السليمة .

وإننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولسكننا نؤكد . ونحن
على يقين من الأمر — لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفي
بأنهم لن يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا الشريعة التزاماً
تتاما . وبالله التوفيق .

التصوف والتجمل من الشريعة الاسلامية

(٣)

فتوى للامام الغزالي^(١)

كتب له بعض الزائعين : ما قوله ، متع الله المسلمين ببقائه . ومتع الطالبين بمشاهدته ولقائه ، ومنحه أفضل ما منح أفضل خاصته من أصفيائه وأوليائه ، في قلب خصه الحق بأنواع من الطرف والهدايا ، ومنحه أصنافاً من الأنوار والعطايا ، يستمر له ذلك في جميع الأوقات والأحوال ، متزايدة مع عدم العوائق والآفات .

مع كون ظاهره معموراً ، بأحكام الشرع وأدائه ، منزهاً عن مآثمه . ومخالفاته ، ويجد في الباطن مكاشفات وأنواراً عجيبة .

ثم إنه انكشف له نوع يعرفه ، أن المقصود من التكليف الشرعية . والرياضات التأديبية هو الفطام عماسوى الحق ، كما قيل له « موسى ، ﷺ .

[أخل قلبك . أريد أن أنزل فيه]

فإذا تم الفطام ، وحصل المقصود بالوصول إلى القربة ، ودوام الترقى من غير فترة ، حتى إنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره ، انقطع عن حفظ الباطن ، وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنة ، إلى مراعاة أمر الظاهر .

وهذا الرجل لا يزع يده من التكليف الظاهر ، ولا يقصر في أحكام الشريعة ، لكن الاعتقاد الذي كان له في الظواهر والتكليف ، تناقص

(١) هذه الفتوى ذكرها تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ في كتابه « طبقات الشافعية » ، وهي موجودة في كتاب « سيرة الغزالي » للأستاذ عبد الكريم العثماني ، وفي المقدمة التي كتبها الأستاذ الدكتور سليمان دنيا لكتاب « فيصل التفرقة » .

وتقاصر عما كان في الإبتداء من التعظيم لوقعها عنده ، ولكنه يباشرها ويواظب عليها عادة . لا لأجل الخلق ، وحفظ نظرهم ، ومراقبة الله بل صارت إلغاً له ، وإن نقص اعتقاده فيها ، فهو يعظمها .

ما حكمها ؟

ثم إن عرضت له شبهة :

« أن المقصود من الداعي والدعوة ، حصول المعرفة والقربة ، وإذا حصل هذا استغنى عن الدواعي ، والواسطة ، .

كيف معالجتها ؟

فإن قلنا : المعرفة لا تنتهى أبداً ، بل تقبل الزيادة أبداً ، فلا يستغنى عن الداعي أبداً لا محالة .

فربما قال : الداعي قد بين ما احتيج إلى بيانه ، وشرح معالم الطريق ، وذهب .

فلو احتاج السالك إلى مراجعته في زوائد وإيرادات ، لم تمكن المراجعة في هذه الحالة .

فيقول :

ما هو طبيب علاتي في هذه الحالة ، لأنه غاب عن إمكان المراجعة فما علاجه ؟

نعم : فالجواب مسوق حسبما عود من شافى بيانه :

الجواب : وبالله التوفيق : ينبغي أن يتحقق المرید هنا أن من ظن أن المقصود من التكليف والتعبد بالفرائض ، الفطام عما سوى الله ، والتجرد له ، فهو مصيب في ظنه أن ذلك مقصود ، ومخطيء في ظنه أنه كل المقصود ، ولا مقصود سواه .

بل لله تعالى في الفرائض التي استعبد بها الخلق أسرار سوى الفطام ، تقصر بضاعة العقل عن دركها .

ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن ، مثل رجل بنى له أبوه ، قصرًا على رأس جبل ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة ، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ، أن لا يدخل هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره .

وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه .

فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين ، وطلب من البر والبحر أو تاداً من العود والعنبر والمسك ، وجمع في قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة .
فانخرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

فقال لاشك أن والدي ما أوصاني بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته ، والآن قد استغنيننا بهذه الرياحين عن رائحته ، فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيقَ على المسكان ، فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش، ظهر من بعض ثقب القصر حية هائلة، وضر بته ضربة أشرف بها على الهلاك ، فتنبه حيث لم ينفعه التنبيه أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان .
أحدهما : انتفاع الولد برائحته ، وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثاني : اندفاع الحيات المهلكات برائحته ، وذلك بما قصر عن دركه بصيرة الولد فاعتز الولد بما عنده من العلم ، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله ، كما قال تعالى :

[ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ] .

وقال [فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ، قَسَرُّوا بِمَا عِنْدَهُمْ .

مِنَ الْعِلْمِ] .

والمغرور من اغتر بعقله فظن أن ما هو متتفٍ عن علمه ،
فهو متتفٍ في نفسه .

ولقد عرف أهل الكمال أن قلب الأدمى كذلك القصر ، وأنه معشش
حيات وعقاب مهلكات ، وإنما رقيتها وقيدها بطريق خاصة : المكتوبات ،
والمشروعات .

بقوله سبحانه :

« إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْثُوتًا » .

وقوله تعالى :

[كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ] .

فكما أن الكلمات الملفوظة والمكتوبة في الرقية تؤثر بالخاصة في استخراج
الحيات ، بل في استئسجار الجن والشياطين .

وبعض الأدعية المنظومة الماثورة تؤثر في استمالة الملائكة إلى السعى
في إجابة الداعي ويقصر العقل عن إدراك كيفيته وخاصيته ، وإنما يدرك
ذلك « بقوة النبوة » إذا كوشف السرها من اللوح المحفوظ .

فكذلك صورة الصلاة المشتملة على ركوع واحد ، وسجودين ، وعدد
مخصوص ، وألفاظ معينة من القرآن ، متلوة مختلفة المقادير : عند طلوع
الشمس ، وعند الزوال ، والغروب ، تؤثر بالخاصة في تسكين التنين المستكن
في قالب الأدمى الذي يتشعب منه حيات كبيرة الرموس بعد أخلاق الأدمى ،
يلدغه وينهشه في القبر ، متمكنا من جوهر الروح وذاته ، أشد إبلاما من
لدغٍ ممكن من القالب أولا ثم يسرى أثره إلى الروح .

وإليه الإشارة بقوله ﷺ :

[يسلط الله على الكافر في قبره تنين ، له تسعة وتسعون رأساً صفته

كذا وكذا . . .] الحديث .

ويكثر مثل هذا التين في خلقة الآدمي ، ولا يقيمعه إلا الفرائض المكتوبة ، فهي المنجية من المهلكات ، وهي أنواع كثيرة بعدد الأخلاق المذمومة .

[وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ] .

* * *

فإذن في التكليف غرضان :

أدرك [هذا المغرور] أحدهما ، وغفل عن الآخر .

وقد وقع اد أبي حنيفة ، مثل هذا الظن في الفقهيات ، فقال :

« أوجب الله في أربعين شاة ، شاة ، وقصد به إزالة الفقر ، والشاة

آلة في الإزالة ، فإذا حصل بمال آخر ، فقد حصل تمام المقصود » .

فقال « الشافعي ، رضى الله عنه :

« صدقت في قولك : إن هذا مقصود ، وركبت متن الخطر في حكمك

بأنه لا مقصود سواه ، فم تأمره : إذ يقال له يوم القيامة : كان لنا سر

في إشراك الغير الفقير ، مع نفسه في جنس ماله ؟ كما كان من يرمى سبعة

أحجار في الحج يؤدي بدله خمس لآل ، أو خمس أكبر إذ لم يقبله .

وإذ جاز أن يتمحض التقييد في الحج ، وأن يتمحض المعنى المعقول

في معاملات الخلق فلم يستحل أن يجمع المعقول والتقييد جميعاً في الزكاة ،

فتكون إزالة الفقر معقولة ، والسر الآخر غير معقول » .

* * *

وزاد « أبو حنيفة ، على هذا فقال :

« المقصود من « كلمة التكبير » الثناء على الله بالكبرياء ، فلا فرق بينه

وبين ترجمته بكل لسان ، وبين قوله « الله أعظم ،

فقال : « الشافعي » :

« وميم » علمت : أنه لا فرق في صفات الله بين « العظمة » و « الكبرياء » ؟
مع أنه تعالى يقول :

« العظمة » إزارى و « الكبرياء » ردائى . و « الرداء » أشرف من
« الإزار » وهلا استنبطت مقصود « الخضوع » من « الركوع » وأقمت
مقامه السجود ؟ .

لأنه أبلغ منه الاستكانة .

فإن قلت : لعل الله سرأ فى الركوع خاصة ، سوى ما فهمناه .

فلم يستحيل أن يكون له سر فى كلمة « السلام » فلا يقوم مقامه « الحديث »
وكل خطاب للآدمى ، وأن يكون له سر فى القرآن المعجز ، ولا يقوم مقامه
غيره ، وقد أقام الترجمة مقامه ، وأن يكون له سر فى الفاتحة ، وقد أقام
مقامها سائر القرآن .

فإن كان يقول : المقصود معانى القرآن ، وتأثر القلب ، لا حروفه
وأصواته ؛ فإنها آلات فهلا قال : والمقصود من حركة اللسان تأثر القلب ،
فليكف عن القراءة للجلوس مع الله تعالى على هيئة الإجلال والذكر ،
والسؤال ، بصورة الصلاة .

* * *

وجميع ما ذكر « أبو حنيفة » بطلانه مضمون غير مقطوع .
أما إقامة القراءة بالقلب ، مع ترك حركة اللسان ، وملازمة الذكر ،
مع ترك الركوع والسجود وصورة الصلاة ، فمقطوع ببطلانها بالإجماع ،
وهذا اجر به ذلك الخيال الضعيف إلى خرق الإجماع ، ومخالفة
الشرع القاطع .

فإذا كان المبتدىء فى المعرفة يجرد المعانى عن الصور ، ويطرح الصور
فينطفىء نور معرفته نور ورعه ، فيشور عليه التمنين فى قبره ، فيتعجب منه

ويبدوله من الله مالم يكن يحسب ، فإذا أصابته ضربة التنين قال : ما هذا ؟
فيقال : إنما كان تريقاً هذا التنين صور الفرائض المكتوبة وإليه الإشارة
بما يروى :

« إن الميت يوضع في قبره . فتأتيه ملائكة العذاب من جهة رأسه
فيدفعها القرآن فتأتيه من جهة رجله فيدفعها الحج . . . الحديث .
فإن أصر هذا المغرور على جهالته ، وقال : من بلغ رتبة السكال ، كما
بلغتُ أمن . هذا التنين وطهر باطنه عنه ، فيقال له : إنك مغرور
في أمنك :

[فَبِأَنَّهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ] .

فهم تأمن أن يكون التنين مستكناً في صميم الفؤاد ، استكناً الجمر
تحت الرماد ، أو استكناً النار في الرماد ، وإن مات فيعود حياً فإن منبته
ومنبعه هذا القلب الذي هو مظنة الشهوات والصفات البشرية . وقلع الحشيش
لا يؤمن عودة مرة أخرى بأن يتجدد نباته مهما كانت الأرض معرضة
لأنصباب الماء إليها من منابعها .

فكذلك القلب مادام مصباً لواردات المحسوسات والشهوات ، لم يؤمن
فيها عود النبات بعد الانقطاع والانبثات .

وننبه على هذه المعرفة بالتأمل في ثلاثة أمور :

الأول : بداية حال « إبليس » وأنه كيف وُصِف بأنه كان معلم الملائكة
ثم سقط عن درجة السكال بمخالفة أمر واحد . اغتراراً بما عنده من العلم
وغفلةً عن أسرار الله في الاستبعاد ولم يسقط عن درجته إلا بكياسته ،
وفطنته وتمسكه بمقوله ، في كونه خيراً من آدم عليه السلام .

ففيه الخلق بهذا الرمز ، على أن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانية
بتراء ، وكياسة ناقصة .

الثاني : حال آدم عليه السلام ، وأنه لم يخرج من الجنة إلا بركوبه نهياً
واحداً ، ليعلم أن في ركوب النهى إبطال السكال لخالفه .

الامر الثالث : حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا المغرور
لعله يقول : انه لم تسلم له رتبة السكال .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يزل يلزم الحدود ، ويواظب على
المكتوبات إلى آخر انفاسه ، بل زيد في فرائضه وأوجب عليه التهجّد ، ولم
يُوجب على غيره ، وقيل له :

[يَا أَيُّهَا السُّمْرُ مِلِّ قَسْمِ اللَّيْلِ إِلا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوْ انْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا] .
وانما أوجبت عليه هذه الزيادة ، لأن الخزانة كلما ازداد جوهرها
نفاسة وشرفا ، ينبغي أن تزداد حصنها احكاما وعلوا ؛ فلذلك قيل في تعليل
إيجاب التهجّد :

[إِنَّا سَتَلْنُكَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً
وَأَقْوَمُ قَيْلًا] فتبين له أن هذه الصلوات هي حصن السكال فلا يبقى إلا به .

* * *

ولعل هذا المغرور المعتوه يقول : إنه كان يواظب عليها إشفاقا على
الخلق لأجل الاقتداء ، لا لحاجته إليه في حفظ السكال .
فيقال له :

فلم زاد عليه في التهجّد وجوبا؟

هلا قال : إن مبلغ درجة النبوة ، يستغنى عما يحتاج إليه غيره ، ولو قال ،
لقبل منه ، كما يقبل منه ، أنه أحل له تسعة من النساء ، بل ما شاء ، فإنه بقوة

النبوة يقوى على العدل مع كثرة النساء . كما قيل من المدرس أن يأمر
تلاميذته بالتكرار ، والتسهد ليلا ، وهو ينام .

ويقول : إني بلغت درجة استغنيت عن ذلك .

وليس يترك أحد تكراره بهذه الشبهة .

ولعل هذا إذا اختاره ضحك الشيطان وسخر منه ، وقال له : أنت أكمل
من النبي والصدِّيق ، وكل من واطب على الفرائض ، وعند هذا يقطع الطمع
من صلاحه ، فهو بمن قيل فيهم :

[وَإِنْ تَسَدُّهُمْ إِلَىٰ السُّهُدَىٰ فَمَا لَسَ يَسْتَهْتَدُوا إِذْ أَبَدْنَا]

« مسألة »

أما ما ذكره من أنه لو اشتغل بالتسكليف لشغله ذلك عن القربة التي نالها،
والسكال الذي بلغه فهو كذب صريح ، ومحال فاحش قبيح ، لأن التسكليف قسمان :

أمر و نهى

فأما المنهيات : مثل الزنا ، والسرقه ، والقتل ، والضرب ، والنميمة ،
والكذب ، والقذف .

فترك ذلك كيف يشغل عن السكال ؟ وكيف يحجب عن القربة ؟ والسكال
كيف يكون موقوفا على ركوب هذه القاذورات ؟

وأما المأمورات : فسكالزكاة ، والصوم ، والصلاة .

فكيف تحجبه الزكاة ، ولو أنفق جميع ماله ، فقد دفع السوء عن نفسه ؟

ولو صام جميع دهره ، فهل يفوته بذلك إلا سلطنة الشهوة ؟ فما الذي

يفوت من السكال بترك الأكل ضحوة النهار ، في شهر واحد ، هو رمضان

وأما الصلوات فتتقسم إلى :

أفعال و أذكار

وأفعالها : قيام ، وركوع ، وسجود .

ولا شك في أنه لا يخرج من القربة بالأفعال المعتادة ؛ فإنه إن لم يصل ، فيكون إما قائما ، أو قاعدا ، أو مضطجعا .

وغير المعتاد هو السجود والركوع ، وكيف يجب عن القربة ، ما هو سبب القربة ؟ قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم :

[وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ]

ومن عشق ملكا ذا جمال ، فإذا وضع على التراب بين يديه ، استكانة له ، وجد في قلبه مزيج رَوْح ، وراحة ، وقرب .

ولذلك قال ﷺ :

[وَجُعِلَتْ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ] .

فاستدامة حال القربة واستزادتها في السجود ، وأيسر منه في الاضطجاع والتعود .

ومهما ألقى في قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب كان ذلك أنموذجا من حال إبليس ، حيث ألقى في نفسه أن السجود يحكم الأمر ، سبب زوال قربته ، وكاله .

فشكل ولى سقط من درجة القرابة ، إلى درجة اللعنة ، فسببه ترك السجود ، ومقتداه وإمامه إبليس .

وكل ولى أسعد بالترقي إلى درجات القرب ، قيل له :

[وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ] .

ومقتداه وإمامه الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولا ينبغي أن يتوهم الولي الخالص ، عن خداع إبليس ، ما دام في هذه

الحياة ، بل لا ينجو عنه إلا نبياء
. غير أنهم محفوظون ، كما قال تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى الشَّيْطَانُ
فِي أَمْرِيهِ ، فَسَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلَاقِي الشَّيْطَانُ نَسْخًا يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ،
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [.

وأما أركان ، الصلاة ، فتسكبير ، و فاتحة ، وتشهد ، لا فريضة إلا هذا ،
فما وجه الضرورة في قوله :

«الله أكبر» ، وفي « الحمد لله » والالتجاء إليه ، واستعاذته ، وطلب الهداية
الى الصراط المستقيم ، وهذا مضمون الفاتحة .

وكل ذلك مناجاة مع الله تعالى .

وإن صح ما يقوله متلا ، وفي كل يوم آلاف نفس ، فليصرف هذه
الأنفاس المعدودة ، الى الذكر والسجود ، ولينقص هذه اللاحظات من
درجات كماله ، ليأمن بهذه المسكتوبات من ضرر التنين الذي لا يعتد بشر سواه ،
ويتخلص من خطر الخطأ في هذا الاعتقاد .

ولا شك في أن الخطأ ممكن فيه ، إن لم يكن مقطوعا به .

وان قال : ان عزوف القلب ، الى حفظ ترتيب الأفعال ، والأذكار ،
هو الذى يشغلنى عن درجة القرب ، فهو دعوى محال ؛ لأن الهدى لا يحتاج
الى تكلف الحفظ ، بل المشتهر غيره ، اذا حفظ شيئا مرة يناسب حاله ،
لم يعتبر اليقين به ، مع حفظ طريقه والحاحه ، بل يجد من نفسه في ذلك
هزة ونشاطا .

فكيف لا تكون قررة عين العبد في مناجاة مجبوبة ، وخدمته التى رسمها
وارتضاها له ؟

« مسألة »

(معنى ارتفاع التكليف)

« عن الولي »

بل معنى ارتفاع التكليف عن الولي ، أن العبادة تصير قرة عينه ، وغذاء روحه ، بحيث لا يصبر عنه ، فلا يكون عليه كلفه فيه .

وهو كالصبي يكلف حضور المكتب ، ويحمل على ذلك تهرأ ، فإذا اكتمل بالعلم ، صار ذلك ألد الأشياء عنده ، ولم يصبر عنه ، فلم يكن فيه كلفه .

وتكليف الجائع ليتناول الطعام اللذيذ ، محال ، لأنه يأ كاه بشهوة ويلتذ به ، فأى معنى لتكليفه ؟

فإذن تكليف الولي محال . والتكليف مرتفع عن الولي بهذا المعنى ، لا بمعنى أنه لا يصوم ، ولا يصلى ، ويشرب ، ويزنى .

وكا يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه ، وتقبيل قدميه ، والتواضع له ؛ لأن ذلك منتهى شهوته ولذته ، فكذلك غذاء روح الولي ، فى ملازمة ذكره ، وامثال أمره ، والتواضع له بقلبه ، لا يمكنه إشراك المقابل مع القلب فى الخضوع ، إلا بصورة السجود ، فىكون ذلك كالألذة الخضوع والتعظيم ؛ حتى يشترك فى الالتذاذ قلبه ، وقالبه ، كما قيل :

ألا فاسقتنى خمراً وقل لى هى الخمر

أى ليدرك سمعى لذة اسمه ، كما أدرك ذوقى طعمه .

بل تنتهى لذة الولي من القيام لربه قانتا مناجيا ، إلى أن لا يدرك الورم فى القدم .

فيقال له : ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فيقول : أفلا أكون عبداً مشكوراً ؟

« مسألة »

هل يسقط وقع العبادة من القلب بتسكف

« المواظبة عليها »

أما قولك : إنه إذا تسكف المواظبة على العبادات المشروعة ، وقد تغير اعتقاده فيها ، وسقط وقعها من قلبه ، فهل ينفعه ذلك ؟ فاعلم أنه .

لو لم يعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، في حفظ درجة السكال والقرب ، أو دفع مهلكات الباطل ، وجوز أن يكون لله تعالى سر فيها ، ليس يطلع عليه هو ، فعبادته صحيحة .

وإن اعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، وأنه لا يتصور أن يكون تحت خاصيته سر ، هو لا يطلع عليه ، لعبادته باطلة .

بل إيمانه بالإلهية ، والنبوة ، تخيل باطل ؛ فإنه إذا لم يجوز في كمال قدرة الله تعالى سرا بعينه من الأسرار ، وخاصية من الخواص في الأعمال والأذكار ، فليس مؤمناً بكمال القدرة ، ويرى القدرة قاصرة على قدرة عقله وهو كافر صريح .

وإن جوز ذلك ، وإن لم يكن اعتقد أنه لم يكاف به ، فهو كافر بالنبوة جاهل بما علم بالضرورة من الشريعة ، فإنه صلى الله عليه وسلم ، بشخ قوله تعالى :

[إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا] .

وفهم الصحابة ، وأهل الإجماع ، وجوب الصلاة على العموم من غير استثناء ، فإن شك في إيجاب الرسول ، فليتأمل القرآن والأخبار .

وإن شك في قدرة الله تعالى على نفسه في الأعمال والأذكار ، تكون الفريضة لأجله كالحصن له وجه السكال ، والحراسة على المهلكات الباطنة

فليرجع إلى نفسه ، وليطالبا أنها عرفت استحالة ذلك بضرورة العقل ،
أو نظره ؟ وأنه كيف يعتمد ذلك ويرى في عجائب صنع الله تعالى ما هو
فرع منه ؟

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

حتى إن هذا الشكل المشتمل كل ضلع منه على خمسة
عشر عدداً من حساب الجمل ، إذا أثبت رقبه على
خزف ، لم يصبه ألم ، بشرط مخصوص .

ولو أعطى المرأة التي تعذرت عليها الولادة عند الطلق سهلت
عليها الولادة .

وعرف ذلك بالتجربة ، وأنه يؤثر بخاصية تقصر عقولين الأولين
والآخرين عن إدراك وجه مناسبه .
ويكثر مثل هذا في عجائب الخواص .

فمن أين يستحيل أن يكون لنظم السمكات الإلهية في الفاتحة - مع
الجمع بين أعمال جميع الملائكة من القيام ، والرکوع ، والسجود ، والقعود
فإن كل واحد عمل صنف من الملائكة - خاصية في النجاة ، الأخروية
أوفى حفظ درجة السكال والقرب ، أو دفع المهلكات الباطنة التي تلدغ
في القلب ، لدغا أشد من لدغ الحيات والعقارب ، أو مؤثراً في سعادة
الآدمي بوجه آخر من الوجوه ، يقصر العقل عن إدراكه .

فمن لم يؤمن بإمكان هذا ، فهو عديم العقل والإيمان جميعاً .

مسألة ،

هل يستغنى المرء عن وسيلة الوصول إذا وصل

أما قوله : المقصود المعرفة ، والاستواء على طريق السير إلى الله تعالى .
فقد استوى هذا السالك على الطريق ، وعرف الله ، وكان التكليف

وسيلة الوصول إلى هذا المقصود ، وقد وصل واستغنى عن الوسيلة والمرشد وإن احتاج فقد توفى المرشد وتعذر مراجعته .

فماذا أيضاً يُفهم جوابه بما سبق ، لأن جميع ذلك صادر عن ظنه أن ما ليس حاصلًا في عليه ، فليس حاصلًا في نفسه ، وهو كعجوز ظنت أن ما تخلو عنه حجيرتها تخلو عنه خزانة الملك وبملكته ، أو كسلبية ظنت أنه ليس في العالم سماء الا ستقف بيتهما ، ولا أرض إلا عرصة بيتهما .

وهذا جهل عظيم ، فإن جميع ما وصل إليه الأولياء . بالإضافة إلى مقدرات الله تعالى أقل من قطرة في بحر وإن سلم له وصوله درجة السكال فيجوز أن تكون صورة الصلوات الخمس بطريق الخاصية ، سبباً للترقى إلى درجات السكال التي نالها ، أو يكون سبباً لبقاء السكال ، أو دوامه ، أو يكون لرسوخه حتى لا يتزلزل في سكرات الموت .

فإن لم يواظب عليها ، فعساه يودعه السكال عند الموت ، ويقال له : إنه إنما كان يثبت هذا ، إذا عصفت رياح الموت بالمسامير الخمس ، التي هي المكتوبات ، وكان يستحکم بها ، فلما خلا من المسامير ، ترزعزع وانقطع . فقد خبت وخسرت إذا فرحت بما عندك من العلم ، وسيقال لكم يوم القيامة : معاشر أهل الإباحة .

[ما سلككم في سقر ؟]

فتقولون :

[لم نك من المصلين]

فعلاج هذا المغرور ، الضعيف العقل ، المريض القلب ، أن يتأمل هذه الأمور ، ويجوز الخطأ على نفسه ، والسلام .

قضية التصوف

إنكار التصوف

إن الذين ينسكرون «التصوف» ليسوا من رجال العصر الحديث فحسب. ذلك أن النزاع بين «الفقهاء» و«الصوفية» قديم قدم «التصوف» نفسه، ورجال «الظاهر» على وجه العموم ينفرون من «الصوفية» ويحاربونهم حرباً لا هوادة فيها.

والحرب قائمة أيضاً بين «الصوفية» ومن يتخذون العقل مقياساً لأرائهم ويرون أنه وحده الهادى إلى الرشاد.

ولم يهدأ الصراع قط بين «الصوفية» وغيرهم - فقهاء كانوا أو عقليين - على مر الزمن.

ماهى مأخذهم على «التصوف»؟

أولاً: يرى «الفقهاء» - ويشاركونهم فى هذا الرأى كثير من الباحثين - أن «التصوف» دخيل على الإسلام: إذ ليس فى الإسلام إلا التقوى، والورع، ونوع من الزهد يشبه أن يكون عفة أو قناعة... وقد ذم القرآن الرهبانية، ونفر منها الحديث الشريف، قال تعالى:

«وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَاَرْعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا...» الآية.

وقال رسول الله ﷺ: «لا رهبانية فى الإسلام»

ثانياً: الأدلة على وجود الله، ووحدانيته، وقدرته، وإرادته، موجودة فى القرآن الكريم، فى وضوح لا لبس فيه، فإذا ما تركناه، وذهبنا نلتبس

سواها في متاهات « التصوف » ، فإننا لا نأمن أن نضل في مجاهل الطريق .
ثالثاً : « التصوف » ليس في متناول الجميع . فهو إذاً « أرسطراطية » ،
تتناهى مع روح الإسلام « الديمقراطية » . . .

ولأن « التصوف » ليس في متناول الناس جميعاً ، فهو إذاً تسكليف
بما لا يطاق ، والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

رابعاً : « التصوف » ضعف ، والإسلام قوة والله سبحانه وتعالى يقول :
« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، وَالْجِهَادِ بَابِ
مِنْ أَبْوَابِ الْإِسْلَامِ لِيَتْلَمَّاهُ مَعَ صَوْمِ النَّهَارِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ .

أما العقليون : فإنهم يرون أن الله — سبحانه وتعالى — منحنا العقل
لننتدى به إليه ، فإذا ما احتقرناه — كما يفعل « الصوفية » — فقد احتقرنا
أجل نعمة وهبها الله لنا .

ويرى « العقليون » أن العقل : هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى اليقين
في محيط « ما وراء الطبيعة » ، وهم يبرهنون على وجود الله — عقلياً —
ويرون في براهينهم غناء ودقة ، و يقيناً لا لبس فيه .

وقد حث الله في القرآن على استعمال العقل ، والآيات التي تخاطب العقل
وتدعو إلى استعماله كثيرة متعددة .

هذه هي أهم ما يأخذه منكر و التصوف على « التصوف » ، و « الصوفية »
وأما ماعداها مما يتكلمون به على الأشكال ، والطقوس والعبادات التي يلصقونها
بـ « التصوف » ، وليست منه ، فإننا نضرب عنها صفحاً ؛ ذلك أننا نتحدث
عن ، التصوف ، الحقيقي و « الصوفية » ، الحقيقيين .

تحديد موطن النزاع :

ونزيد الآن أن نبين — في إيجاز — بعض ما يراه « الصوفية » في هذه

الاعتراضات ، لتبين الحق في هذا الغموض والاضطراب ، والخلط الذي يسود قضية « التصوف » .

إن الاستدلال على وجود الله لا يحتاج - في نظر الصوفية إلى كدالذهن وإعمال الفكر .

كيف يتأتى أن يخفى الله ، وأن يكون من الخفاء بحيث نحاول جهدنا أن نتطلب ما يثبت وجوده من أدلة ؟

إن إثبات وجود الله ليس مشكلة في نظر الصوفي ، وإذاً ، فإنه لا يؤخذ على الصوفي أنه يذهب إلى طرق خفية لينتهي من ورائها إلى الاستدلال على وجود الله .

ولكن البشرية - شرقية كانت أو غربية ، ومسلمة كانت أو مسيحية ، وقديمة كانت أو حديثة - لا تخلو من طائفة كبيرة تتطلب في إلحاح . وفي قلق ، وفي تحمس جارف ، ما وراء إثبات وجود الله والنفس الإنسانية هكذا خلقت : فكلمة منح الله الإنسان عقلاً كبيراً ، وذكاء حاداً ، ونفساً طليعة ، كان ذلك مدعاة له إلى التوغل في البحث فيما وراء الطبيعة .

إن وجود الله ووحديته ، وكونه عالماً ، مريداً ، قادراً ، كل هذه مسائل هيينة ، ولو وقعت عندها النفوس لما كان هناك فلسفة .

ولما كان علم الكلام .

ولما كانت الأبحاث النظرية فيما وراء الطبيعة .

ولما كان التصوف .

ولكن النفوس لم تقتصر على ذلك ، ولا يمكنها الاقتصار على ذلك ، ولن يتأتى لها - عن رغبة أو رهبة - أن تقتصر على ذلك !!

المشاكل التي يراد حلها :

كيف خلق الله العالم؟ أخلقه من العدم المطلق؟ فكيف إذن ينتج شيء من لا شيء؟ .

إن شيئاً من لا شيء لا يتصوره العقل ، بل إنه يحكم باستحالته . .
أم خلقه من مادة كانت موجودة : فالمادة إذن قديمة ، قدم الله نفسه ، وهناك إذن قديمان : الله ، والمادة .

والله لا نهائى الذات : ومقتضى هذا أن لا يخرج عن ذاته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، إنه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو كل شيء فى كل شيء . وبهذه النظرة يخاطب « شلى ، الله — سبحانه وتعالى — فيقول :

« إن أصغر ورقة من أوراق الأشجار التى يلاعها النسيم ليست إلا بضعة منك : (جزءاً من أجزاءك) . كلا ، ولا أحقر دودة تسكن القبور ، وتسمن من لحوم الموتى أقل مشاركة لك فى حياتك السرمدية ، .

ويقول : « إن هذه الروح التى توجد فى كل مكان ، بها يحيى كل موجود ، وهى هو ، (١) .

أحق هذا؟ أم أن ذات الله لا تتضمن أرضاً ولا سماء ، ولا برأ ولا بجرأ ، فهى ، إذن ، محدودة : لأنها ما عدا هذا الكون .

ثم إن الله — زيادة على ذلك — لا يمكن أن يوجد فى كل مكان .
والله عالم .

أهو عالم بما كان على أنه كان؟ وبما سيكون على أنه سيكون؟ وبما هو كائن على أنه كائن؟

(١) عن مبادئ الفلاسفة ، ترجمة الدكتور أحمد أمين ، .

أم أنه عالم بما كان وبما هو كائن على أنه سيكون ؟
أم أنه عالم بما هو كائن وبما سيكون على أنه كان ؟
أيسيطر الزمن على علم الله ؟
أم أن الله فوق الزمن ؟ وأنه في حاضر لا يزول ؟
ولكن كيف يتأتى لنا حقاً أن نفهم أن الله في حاضر لا يزول ؟ مع
بداهة شعورنا بالماضي والحاضر والمستقبل .

والله عالم — كما قلنا — أهو عالم بذاته فحسب لأن علمه في شرفه وسموه
وكماله إنما يتعلق بما يناسبه من شرف وكمال وسمو ؛ وليس ذلك إلا ذاته
— سبحانه وتعالى —

أم أن علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، ولا شأن له بالجزئيات ؛
لأنها تافهة لا قيمة لها ، والله منزّه عن أن يتعلق علمه بالتافه ؟

أم علم الله يتعلق بذاته وبالكليات ، وبالجزئيات ، على الرغم مما في الجزئيات
من نقص وتفاهة ، ومن مناظر تشمئز منها النفس ويعافها النظر ؟

والله قادر . أهو قادر على كل شيء ؟ أقادر هو على الجمع بين الضدين
مثلاً ؟ أقادر على أن يجعل الثلاثة أكثر من العشرة ؟ والجزء أكبر من الكل ؟

أم أن هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرة الله ؟

وإذا كان هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرته ، أفيتصف إذن بالكمال ؟
أم أن قدرته لا تتعلق بالمستحيل — كما يقول علماء الكلام — معتقدين
أنهم بذلك قد حلوا الإشكال ؟

والله مرید .

أيريد الخير والشر ؟ فلم الحساب والعقاب أو المشوّة ، إذن ؟
وكيف يريد الشر ؟ مع أن طبيعته خير محض ؟ كيف يريد الشر مع أن
إرادة الشر في بني البشر تعتبر نقصاً ؛

وإذا لم يكن يريد الشر فهل يحدث الشر في هذا العالم رغماً عنه ؟
أم أنه يحدث وهو عنه راض وإن لم يكن له مريداً ؟
أيرضى الله عن الشر أم يكرهه ؟
إن رضاه بالشر يتنافى مع كاله .
وإذا كان يكره الشر فكيف يوجد مع كراهيته له ؟
أيجب الله أن يعصى ؟ أم أنه يعصى رغماً عنه
وصفات الله عامة ، مطلقة ، شاملة ، لانهائية : إنه رحمن رحمة مطلقة
لانهائية ، ورحمته وسعت كل شيء ؛ وهو جبار ، ذو جبروت لانهائي
ولطيف لا حد للطفه .

فكيف تنسجم الرحمة المطلقة مع الجبروت المطلق ، مع أن البداية
تقضى بأن تنفي كل صفة منهما وجود الأخرى ؟ وإنه لمن الرائع حقاً :
أن نرى ما يريد أن يراه الشاعر « اسماعيل صبرى ، حينما خاطب الله قائلاً :
وَمُرِّ الْوَجُودَ يَشْفِ عَنْكَ لِسِي أَرَى غَضَبَ اللَّطِيفِ وَرَحْمَةَ الْجَبَّارِ
أيمكننا أن نرى حقاً غضب اللطيف الذى لانهائية للطفه ؟ ورحمة
الجبار الذى لانهائية لجبروته ؟

والله عفو ، وعفوه مطلق شامل : إذ أن صفاته كلها مطلقة شاملة ، فهل
اسماعيل صبرى محق إذاً حينما يقول :

يَا رَبِّ أَيْنَ تُسْرَى تَقَامُ جَهَنَّمَ لِلظَّالِمِينَ غَدَاً وَاللَّأَشْرَارِ
لَمْ يُبْنَقِ عَفْوُكَ فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَا وَالْأَرْضِ شَبْرًا خَالِيًا لِلنَّارِ .
وكيف يُسَلِّقِ اللهُ بِالْمَعْرِفَةِ إِلَى رَسَلِهِ ؟ ، بأى لغة يخاطبهم ؟ وكيف ينزل
« الملك » على رسول الله ، فيراه ويسمعه فى حين أن من كانوا معه لا يرونه
ولا يسمعونه ؟

ومن أين يأتي « الملك » ، ؟ ، أمن السماء ؟ ، ولِمَ ؟ ، مع أن الله فى كل مكان ا

إن مشكلة الوحي ، هي الأخرى ، من المشاكل التي استنفذت الكثير من المداد .

وماذا بعد هذه الحياة ؟ ، أحياء أخرى جسمانية ، نأكل فيها ، ونلهمو ، ونلعب ، ونسرح ونمرح ، ونأخذ بذلك ثمن ما أديناه في حياتنا الدنيا العابرة : من عبادة ومن طاعة ؟

أم أنها حياة روحانية لا صلة لها بالمادة البتة !

أم أنها مزيج من الحياة المادية والحياة الروحانية ، تأتلف فيها المادة بالروح ، اثتلافاً منسجماً متناسخاً .

إن الذاهبين الأوائل لم يعد منهم أحد ليصف لنا الحالة في دقة دقيقة ، وفي تحديد محدد .

والقرآن يتحدث عن نعيم الآخرة وعذابها ، فيفسر قوم وصفه على أنه حسي روحاني ، ويفسر آخرون وصفه على أنه روحاني بحت .

وما هدف الله في إيجاد هذا العالم ! أخلقه ليعبده : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ، أم خلقه ليعرف ، كما قيل : « كنت كنزاً مخفياً خلقت الخلق ، فبي عرفوني » .

إن كمال الله غني عن أن يكون في حاجة إلى طاعة البشر ، وأسمى من أن يكون في حاجة إلى أن يعرف : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد » .

أخلق الله العالم اعتباراً ، أم خلقه لحكمة ؟

إن الله يتنزه عن أن يعمل العمل اعتباراً ، : « أفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ؟ ، تعالی الله عن ذلك علواً كبيراً !

والحكمة : إنما هي تعبير عن الغرض أو الهدف أو الغاية ، وذلك ينبي عن الحاجة ، والله تعالى منزّه عن الحاجة .

نعود فنتساءل : لم أوجد الله العالم ؟

والشيخ محمد عبده يذكر بعض المشاكل التي أثارها العقل ، وجعلته ينشط إلى البحث والنظر ، ويعدّها من المتشابهة . قال رحمه الله في رسالة التوحيد : « جاء القرآن يصف الله بصفات ، وإن كانت أقرب إلى التنزيه بما رُصف به في مخاطبات الأجيال السابقة فمن صفات البشر ما يشاركنها في الاسم ، أو في الجنس : كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر .

وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها في الإنسان : كالاستواء على العرش ، وكالوجه ، واليدين .

ثم أفاض في القضاء السابق ، وفي الاختيار الممنوح للإنسان ، وجادل الثعالين من أهل المذهبين .

ثم جاء بالوعد ، والوعيد ، على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر في الثواب والعقاب إلى مشيئة الله . وأمثال ذلك .

ويقول : وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الأكل والمؤاخذة عليه . .

الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة :

هذه المشاكل لم اخترعها اختراعاً ، ولم أبتدعها ابتداءً . وإنما هي موجودة ، تصادفك في الفلسفة ، وتصادفك في علم الكلام ؛ وهي موجودة قديماً ، وموجودة حديثاً ، وهي بعض من كل .

كيف نصل حقيقة إلى الإجابة عليها ؟ ما هو السبيل الصحيح للاطمئنان التام فيما يتعلق بشأنها ؟ هل مرد الأمر فيها إلى الحواس والملاحظة ، والتجربة ، والعلم الحديث ، وما فيه من طبيعة وكيمياء ، أو من فلك وطب ؟ اللهم ، لا .

العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة :

أمر ذلك إلى العقل إذن؟ أيكشف العقل حقاً عن ذلك؟ أيصل العقل إلى كشف مسانير ما وراء الطبيعة، واختراق حجب ما وراء المادة والصعود إلى الملائ الأعلى؟

وعقل من؟ أعقلي أنا؟ أنتحتم إلى عقلي وهو — فيما أرى — ناضج؟ وسيحلها دون أن يكون مسييراً بهوى، أو بعصية. أميرضى بعقلي حكماً؟ أم نحتتم إلى عقلك أنت أيها القارئ العزيز؟ وهو فيما ترى ناضج؟ وسيحلها دون أن يكون مسييراً بهوى، أو بعصية.

ولكن إمام « الشيعة » — بحسب نظرهم — معصوم، وهم يلجأون إليه فيما ادلهم من الأمور، وسوف لا يرضون بغير حكمه بديلاً، وهم ملايين عدة، أنستلهمهم الرشد في هذه المسائل؟

إنهم سوف لا يرضون بمحكمةنا! أفنزل إذن على حكمهم؟ وإذا نزلنا على حكمهم، أيوحّد ذلك بين بني البشر فيحصل الاتفاق المطلق على هذه المسائل؟

إن الكاثوليك يرون أن البابا معصوم، أنه على الأقل — فيما يرون — معصوم في الأمور الدينية، ورأيه هو الفيصل في كل ما يتعلق بمسائل الدين؛ أترضى آراؤه البوذيين، أم المسلمين، أم اليهود؟

هل حل هذه المسائل من اختصاص القبعات، أم من اختصاص العمام؟ أحلها محصور في السربون؟ أم هو من اختصاص الأزهر؟

إن هذه المسائل « شغلت الروس على اختلاف أنواعها: من ذوات القلائس من قدماء المصريين، إلى حملة العمام، إلى لابسى القبعات السود؛ إلى أرباب الضفائر، إلى ألوف تصببت عرفاً من البحث، (١).

(١) من مبادئ الفلسفة. ترجمة « الدكتور أحمد أمين »

إلى أى هؤلاء نلجأ فى حلها؟ لقد :
تغيرت البدو ماذا تكون وضائت بوادى الظنون الحضرة
قد نقول : إنها من اختصاص الفلاسفة ؛ ويجب أن نلجأ لذن إلى
أهل الاختصاص .

ألجأ إلى عقل « أفلاطون ، أم إلى عقل « أرسطو » .
وهل نلجأ إلى عقل « بيكون ، أم إلى عقل « ديكارت ،
هل تلجأ إلى عقل « فيلسوف ، حسي ؟ أم إلى عقل « فيلسوف » ، مثالى ...؟
أم نلجأ إلى علماء الكلام ؟ وأيهم ؟ : اللنظام ، وقد كان حاد الذكاء
متوقد الذهن ، صاحب منطق وجدل ؟ .. إن « ابن تيمية ، لا يرضى لنا ذلك
« وابن تيمية ، رجل واسع الإطلاع ، حاد الذكاء ، متوقد الذهن فهل تتبعه
أم تتبع شخصية من شخصيات العصر الحديث ؟ فهل تتبع « الشيخ محمد
عبده ، ، أم تتبع « الشيخ عليش » ؟ إن كلا منهما رجل فاضل ، واسع الإطلاع
ولسكنهما لا يكادان يلتقيان فى شىء من آرائهما سواء فى ذلك الوسائل
والأهداف ؛ فإلى عقل أيهما نحتكم ؟ ..

وبعد كل ذلك أليس رأى « كانت ، هو الحكمة كل الحكمة حينما
يقول « إن عقل الإنسان مركب تركيباً .يؤسف له ، فإنه مع شغفه بالبحث
فى مسائل لا تدرکہا حواسنا ، لم يستطع أن يكشف عن معانيها .

أما الإمام « الرازى ، فإنه يقول فى عجز العقل :

نهاية إقدام العقول عقالٌ وأكثر سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ومن كلامه الحكيم : « ولقد تأملت الطرق « الكلامية ، ، والمنهج
« الفلسفية ، فإرايتها تشفى غليلا ، ولا تروى غليلا .

ويقول فى وصيته التى أملاها على تلميذه « ابراهيم ، بن « أبى بكر ،
الأصفهاني : « ولقد اخترت الطرق « الكلامية ، والمنهج « الفلسفية ،

فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم .
والإمام « الرازي » ، هذا ، هو الذي يقول فيه صاحب « وفيات الأعيان » :
« فاق أهل زمانه في علم « الكلام » ، و « المعقولات » ، وعلم « الأوائل » .
وليس كانت ، وليس الرازي لإمثالين من أمثلة عديدة تتلاقى في النهاية
مع الشاعر الرقيق إسماعيل صبرى فترجو من الله ما يرجو حينما يلجأ إليه قائلاً :
يا رب أهاننى لفضلك ، واكفنى شَطَطَ العقولِ ، وفتنة الأفكار
ومع ذلك فهذه المشاكل تقض مضاجع كثيرين من ذوى الإحساس
الدينى المرهف ، وتؤرق أعينهم ، وتشغلهم - مصبحين مسين - ومثلهم
في ذلك مثل إبراهيم - عليه السلام - إذ :

« قال : ربِّ أرني كيف تخي الموتى ؟

قال : أو لم تؤمن ؟

قال : بلى ، ولكن ليطنمئن قلبي

فما هي الوسيلة التي يروون عن طريقها غلثهم . وتشقى صدورهم .

إن الدين لم يتعرض لهذه المشاكل ، والحس لا يصل إلى حلها ، والعقل
بموازينه ومقاييسه وقواعده عاجز كبل العجز كما رأينا سابقاً عن الوصول
إلى حلها وليس أدل على عجزه من التجربة الواضحة لكل ذى عينين : إن الفلسفة
منذ عهد سقراط تتخبط وتتعثر ، وتتضارب وتتناقض ، وتحل وتعقد ، ولا تصل
ألبتة إلى نتيجة حاسمة في أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة الشائكة .

وعلم الكلام مختلف مضطرب ، يحارب بعضه بعضاً ، بل ويسكفر رجاله
بعضهم البعض .

إلامَ نتجه إذن ؟

إننا إذا نفضنا أيدينا من الحس ؛ فذلك لأننا لم نجد فيه غناء .

وإذا أعرضنا عن العقل ، فليس ذلك احتقاراً له ، لأننا نستهمله

معتزفين بفضلهم في ميدانه الخاص به ، وإنما كان إعراضنا عنه في ما وراء الطبيعة لأننا لا نريد أن نقحمه في غير دائرة اختصاصه ، نعود فنقول لإلام نتجه ؟ إن الأمر ليس بهين !! وتكشف الطريق الصواب ليس من السهولة ، كان ،

البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة :

واكتننا إذا ما لجأنا إلى الله نستلمه الخبر ونستهديه الطريق الرشاد ، وإذا ما توجهنا إلى القرآن نسترشده فيما أدلهم ونخفي ، فماذا نجد ؟ نجد أن القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يرشد ، في مواطن عدة ، إلى نوع من المعرفة ، ليس طريقه الحس ، وليس طريقه العقل ، ولا يستمد صراحة من السكتب المقدسة ، ذلك النوع في أبسط صورته وأعمها وأشملها هو الرؤيا . فالقرآن يحدثنا في سورة يوسف عن عدة رؤى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إني رأيتُ أحدَ عشر كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتَهُم لي ساجدين » .

ويعتقد والده في رؤياه ، ويؤمن بها ، ويسدى إليه النصيحة : « يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، .
وحينما سجن العزيز يوسف « ودخل معه السجن فتيان .
قال أحدهما : إني أراي أعصيرُ خمرآ .

وقال الآخر : إني أراي أحملُ فوق رأسي خبزاً تكل الطير منه ، .
وذهبا إلى يوسف واستنياه الأمر ، وطلبا إليه مستعطفين : « نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين » ، ونبأهما يوسف بتأويل الرؤى .
ولا تقتصر السورة على ذكر ذلك : « وقال الملك إني أرى سبع

بقرات سمان ، يا كئلهن سبع عجا ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر
يابسات ، يا أيها الملاء أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون .

ويفسر « يوسف » تلك الرؤى ، فيرى : أن نفس الملك ، تكشف
لها المستقبل ، ورأت الغيب المحجوب ، وعبرت عنه في صورة رمزية ،
ويفسر « يوسف » الرمز قال : تسرعون سبع سنين دأباً ، فمأخذ تسم
فذرؤوه في سنبله ، إلا قليلاً مما تأكلون .

تسم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ، يا كائن ماقد نتم
لهن ، إلا قليلاً مما تحنون .

تسم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ،
ولما اجتمع شمل « يوسف » بأبيه وأخوته وخر له أخوته سجداً :

ذكر « يوسف » أباه برؤيته السابقة وقال : يا أبت هذا تأويل
رؤياي من قبل ، قد جعلها ربِّي حقاً .

والحديث الشريف يذكر . أن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً
من النبوة .

ليست الرؤيا معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، وليست معرفة
مصدرها الكتاب المقدسة .

ولكن قد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم أمودجا من خاصية
النبوة وهو النوم ؛ إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما
في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه
— وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشياً عليه ، كالميت ، ويزول عنه
إحساسه وسمعه وبصره . فيدرك الغيب — لأنكر وأقام البرهان على
استحالة وقال : القوى الحساسة أسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء

مع وجودها وحضورها فبان لا يدركها مع ركودها ، أولى وأحق .
وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة ، (١) .

والنبوة ، هي الأخرى ، ليست معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية .
لأنها ليست تجربة ، وليست منطقاً ؛ ليست استقراءً ناقصاً أو تاماً ، وليست
قياساً من الشكل الأول أو الرابع ، وليكنها وحى من الله .

والقرآن خاص بهذا النمط من المعرفة الإلهية : إنه خاص بذكر الأنبياء
الرسل الذين كلمهم الله وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو بإرسال الرسل
إليهم : أعني الملائكة .

والقرآن يحدثننا أيضاً في أسلوب قصصى طريف شائق عن العبد الصالح
الذى أخذ سيدنا « موسى » في البحث عنه جهده ، حتى وجده وأبدى
رغبته في اصطحابه ومرافقته ، فقال له العبد الصالح :

إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا .

وأخ « موسى » .

وقبل العبد الصالح - في النهاية - على شروط اشترطها ، ولم يكن فيها
رفيقاً « موسى » ، أو عطوفاً عليه . . .

وسارا فأخذ العبد الصالح يأتى بأعمال لا تنسجم مع العاطفة ، ولا مع
المنطق ، ولا مع العقل ، ولا مع القانون .

ولم يكن موسى ليحتمل الصبر على ما يرى دون تفسير له وتعليل .
وكان من أول شروط العبد الصالح عليه ألا يسأله عن شيء ، ولم يجد
موسى إلى الصبر سبيلاً ، ولم يجد العبد الصالح - وقد أدخل موسى بالشرط -
مناصاً من أن يعلنها صريحة واضحة « هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » ، والقصة

(١) الغزالي في المنقذ من الضلال .

والقصة كلها حرة بأن تذكر بأسلوب القرآن الطريف الشائق :

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ : لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ
الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا . فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ،
فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا . فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلِهِ :

آتَيْنَا عِدَاءَنَا ، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا .

قال : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ،
وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا .
قال : ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ؛ فارتدَّا على آثارهما قصصاً ، فوجدَا عَبْدًا
مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا .

قال له موسى : هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَنِي رُشْدًا ؟

قال : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَضْبِرُ عَلَى مَا لَمْ

تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝۱۱۱ .

قال : سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا .

قال : فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا .

فانطلقا معاً حتى إذا ركبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا .

قال : أَخْرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا ۝۱۱۱ لَقَدْ جِئْتَنِي شَيْئًا إِمْرًا ۝۱۱۱ .

قال : أَلَمْ أَقُلْ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟

قال : لَا تَتُوبَ إِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا .

فانطلقا معاً حتى إذا لقيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ .

قال : أَفَتُكَلِّمُنَا بِعِلْمَيْكَ بِنَفْسِنَا إِذْ نَحْنُ مُنْكَرُونَ .

قال : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟

قال : إن سألتك عن شيء بعدَهَا فلا تُصاحبني ، قد بلغت
من لدنِّي عُذراً .

فانطلقا حتى إذا تيسرا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن
يضيفنهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه .

قال : لو شئت لتخذت عليه أجراً .

قال : هذا فراق يدي ويديك ، سأنبئك بتأويل ما لم

تستطع عليه صبراً .

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبتها ،
وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا .

وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً
وكفراً ، فأردنا أن يبدل لهما ربهما خيراً منه زكاه وأقرب رخصاً .

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز
لهما ، وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلسغا أشدهما ويستخرجا
كنزهما رحمة من ربك ؛ وما فعلته عن أمري ؛ ذلك تأويل
ما لم تستطع عليه صبراً (١) .

هناك إذن طريق للمعرفة ، غير الحس وغير العقل .

ما السبيل إليه ؟

الطريق إلى المعرفة :

إن تجارب الصالحين ، منذ عصور متطاولة ، دلت على أن تركية النفس ،

(١) سورة الكهف ، ٦٠ - ٨٣ .

وتطهيرها والإلتجاء إلى الله ، والتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى ، فتفيض عليها منه نفحات ، وإلهامات ، ومعرفة لا تتأني لذوى النفوس المادية ، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله .

طريق البصيرة طريق صواب :

ولكن الكثيرين يشكّون في هذا الطريق — طريق البصيرة الذي سبيله التزكى والتطهر — الموصل إلى المعرفة ، ويرون أنه أسطورة من الأساطير أو خرافة من الخرافات ، ويتطلبون في إلحاح الإستدلال على أن هذا الطريق صحيح .

ويرون أن النبوة ، والرسالة ، والعبء الصالح ، كل هذه أمور خارقة للعادة أرادها الله فكان ما أراد ، ولكن ليس هناك من دليل على أن غيرهم من البشر يستطيعون أن يصلوا إلى معرفة إلهامية . فما الدليل إذن على أن التصوف وسيلة من وسائل المعرفة ؟ .

إلى هؤلاء نقول ما قاله الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، لأمنالهم من المعترضين ، قاله في ساحة « السربون » ، لاساتذة الجامعة ، وعلماء باريس ، حينما دعوه ليحاضرهم في « ما وراء الطبيعة » .

« سينسأل قوم : أمن الممكن أن نتخطى الطبيعة فنصل إلى ما وراءها ؟ إننا لا نتردد في أن نجيبهم في وضوح واضح : ليس ذلك ممكناً فحسب ، ولكن ذلك واقع موجود .

سيقولون : تلك قضية تفتقر إلى برهان .

ولكن أى برهان يمكن أن يقدمه الإنسان على وقوع هذا الأمر بوجوده ؟ إنه لمن الغريب حقاً أن يطلب البرهان على إمكان نوع من المعرفة ،

بدلاً أن يحاول الإنسان أن يصل إليها بتجربته الشخصية ، سالكاً إليها ما تتطلبه من سبل .

إن الشخص الذي وصل إلى هذه المعرفة لا يعنيه في قليل أو كثير ما يثور حولها ، من جدل ونقاش .

وإنه لمن البين الواضح أن إحلال « نظرية المعرفة » محل المعرفة نفسها إعلان صريح على عجز الفلاسفة الحديثة ، .

وهذا الرأي نفسه هو ما يراه كثير من كبار المفكرين ، في كل عصر : إنه رأي الفارابي ، ورأي ابن سينا ، ورأي الشيخ محمد عبده :

يقول الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد :

« أما أرباب النفوس العالمة ، والعقول السامية ، من العرفاء من لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناً ؛ فكثير منهم نال حظهم من الأنس بما يقارب تلك الحال « حال الاتصال ، في النوع أو الجنس ، لهم مشاركة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة في عالم « المثال » لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها في الواقع ؛ فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الأنبياء - صلوات الله عليهم - ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحراف .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم بما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرتهم بما يتنكره العقل الصحيح ، أو يجهه الذوق السليم ، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم ، المتلألئ في بصائرهم ؛ إلى دعوة من يحف بهم إلى مافية خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة .

ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولنكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء ما لهم ، وما أن من غرروا به ، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر في تضليل

العقول ، وفساد الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه ، فتسكون كلتهم الحبيبة : كشجرة خبيثة اجتمعت من فوق الأرض ما لها من قرار^(١) .

التصوف أرسقراطية :

كما سبق تبين : أن « الصوفية » يرون أن الحس وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه .

وأن العقل وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه هو أيضاً .

والبصيرة — التي سبيلها تزكية النفس — وسيلة إلى المعرفة ، لها ميدانها . ولا صلة لتزكية النفس بالعاطفة . و« الصوفية » أقل الناس ، تأثراً بالعواطف ، على خلاف ما هو مشهور عادة ، وإذا استعملوا أحياناً كلمة القلب ، فلا يعنون بها ما يتصل من قرب أو من بعد بالعاطفة .

وتزكية النفس طريق صعب المرتقى ، وتركيز الانتباه في الله ، وهو المقصود بـ « الذكر » ، وعبر المسلك ، ولذلك كان طريق التصوف طريقاً خاصاً لا يمكن سلوكه إلا لطائفة قليلة من الناس ، وإذا نظرنا إلى الشروط التي يجب توافرها في السالك ، علمنا أن النفوس الجديرة بسلوك هذا الطريق من الندرة بمكان .

ومن هنا يعترض خصوم « التصوف » قائلين :

« التصوف » إذن : « أرسقراطية » .

وهذا اعتراض لا قيمة له : فد « التصوف » ، حقاً « أرسقراطية » . وطبيعة الأمور تأتي إلا أن يسكون « أرسقراطية » ؛ إنه نظام الصفوة

(١) رسالة الشيخ محمد عبده ، في التوحيد ط صبيح ص ٦٩ — ٧٠ .

المختارة ، إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حساً مرهناً ، وذكاء حاداً ،
وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفاء « الملائكة » ، وطبيعة تكاد
تسكون مخلوقة من النور .

الديمقراطية أسطورة :

وإذا كانت « الديمقراطية » معناها التساوى فى كل شىء ، فهى أسطورة
من الأساطير : فالتساوى لا يوجد فى عالم الطبيعة بحال من الأحوال : إنه
لا يوجد بين الحيوانات فى الغاب ، ولا يوجد بين بنى آدم فى المدن ،
أو فى القرى .

إن الله لم يسو بين الناس فى ألوانهم ، ولا فى قوتهم الجسمانية ،
ولا فى ذكائهم ، ولا فى دهائهم ومكرمهم ، ولا فى أرزاقهم وحظوظهم . . .
ونظام « الطبقات » الذى يسود فى « الهند » ، والذى ننتقده ونشنع عليه
إنما هو النظام الواقع فعلاً فى جميع أقطار الأرض .

و « الروس » الذين بلغت « الديمقراطية » عندهم حد الفوضى ، فيهم
الرئيس والمرءوس ، والسائد بذكائه وقوته ، والمسود بغيبائه وضعفه .

و « الإنجليز » فيهم « الملك » ، و « الأمراء » ، و « النبلاء » ، وفيهم
« عامة الشعب » .

و « أفلاطون » ، وهو « فيلسوف » نابه ، قسم جمهوريته المثالية
إلى « طبقات » ، وذلك بحسب استعداد كل طائفة من الطوائف :
فى « جمهوريته :

طائفة « الإنتاج » ، وهى الطائفة ذات « المعدة » ، الشرهة ، والشهوة الغلابة .

وطائفة « الجند » ، ذات العاطفة القوية .

وطائفة « القادة » ، معدن العقل والحكمة ، والبصيرة ، والإشراق .

التصوف نهج الخاصة :

« التصوف » « أرسنطو طيبة » ، وهو في ذلك منسجم مع طبيعة الأمور : وعلى هذا لا يمكن أن يوجه إلى « التصوف » الاعتراض الرخيص ، الذي يقول : لو شمل « التصوف » كل الناس ، لفسد العالم : ذلك أن الناس جميعاً لا يمكن أن يصبحوا متصوفين ، فطبيعتهم تأبى ذلك ؛ وأئمة « التصوف » يعلمون حق العلم أنه لا يمكن أن يطلب من طائفة الإنتاج : طائفة المعدة والشهوة أن ينهجوا نهج السادة المختارين : معدن الصفاء والحكمة .

الناس معادن : على حد تعبير الرسول — ﷺ — : ومعادنهم ثابتة لا تتغير في « خيارهم في الجاهلية ، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » ، إن فيهم المعدن الذهبي ، وفيهم المعدن الفضي ، وفيهم غير ذلك .

ويصور الشيخ محمد عبده ذلك خير تصوير فيقول في رسالة التوحيد : « مما شهدت به البدئية : أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضاً ؛ وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه من الإجمال ؛ وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط ، بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ، ولا شبهة في أن من النظريات : عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه ، ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك إلى ما لا يحصره العدد ؛ وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريباً ، فيسعى إليه ، ثم يدركه ؛ والناس دونه ينسكرون بدابته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار إليه ، كأنه من المعروف الذي لا ينازع ، والظاهر الذي لا يجاحد ، فإذا أنكره منسكروا عليه ثورتهم بادی الأمر على من دعاهم إليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلبه — ظاهراً في كل أمة إلى اليوم ، ^(١) .

(١) : رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، ط صبيح ص ٦٧ .

واقفه سبحانه يذكر تمايز الناس فيما ينعم عليهم به ، ويبين أن منهم الأنبياء ، ومنهم الصديقون ، ومنهم الشهداء ألح . قال تعالى :

« وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ : مِنَ النَّبِيِّينَ ، وَالصَّادِقِينَ ، وَالشُّهَدَاءِ ، وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا . ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا . »
النساء ٦٩ - ٧٠

لا يدعو « الصوفية » إلى أن يكون الناس جميعاً متصوفين . و « جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد ، أو أن يطالع عليه إلا واحد بعد واحد . »

إن أهل الحق نادرون ، وهذه فكرة بدئية ، لا تحتاج إلى الاستفاضة بيد أن « الصوفية » إذ كانوا لا يدعون الناس جميعاً إلى « التصوف » فإنهم يعملون جهدهم للوصول إلى مجتمع أسمى ؛ إنهم يريدون أن يسود بين جنبات المجتمع جو من الروحانية والرحمة والمحبة ، يجعل الناس إخوة متعاونين ، متكاتفين .

تفاوت الناس في فهم الدين :

أما الاعتراض : بأنه إذا كان الإسلام الحق هو « التصرف » ، فالإسلام دين طائفة محدودة ؛ لا يتيسر لكل إنسان ، فهو اعتراض لا ينسجم مع النزعة العامة عند « الصوفية » .

إن « الصوفية » لا يكفرون من عداهم ، إنهم يرون أن طائفة « الإنتاج » ، ناجية .

ونحن جميعاً نعلم أن الدين الإسلامي ليس في متناول جميع الناس بدرجة واحدة ؛ إن إيمان « أبي بكر » - رضوان الله عليه - ليس كإيمان « الحداد »

والرسول — صلى الله عليه وسلم — يمثل تفاوت الطبائع في الاسترشاد
فيقول :

« إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً :
فكان منها طائفة طيبة فبليت الماء ، فأنبتت السكلاً والعشب الكثير ،
وكان منها أجادب أمسكت الماء فأنفع الله تعالى بها الناس فشربوها منها
وسقوا وزرعوا .

وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان : لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ؛
فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله تعالى به
فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي
أرسلت به . »

التصوف قوة :

والتصوف قوة : ذلك أن نفوس « الصوفية » هينة عندهم في سبيل الله
لأنهم يبذلونها عن رضى لإعلاء كلمة الله ، فهم الذين جشموا أنفسهم المشاق
لنشر الإسلام بين ربوع أفريقيا وأقطارها التي لم تفتتحها الجيوش الإسلامية
وقد كان لهم الفضل الأكبر في نشر الإسلام في « أندونيسيا » وغيرها
من الأقطار النائية .

وكانوا ينشرونه بالقدوة الطيبة ، والخلق الكريم ، أكثر مما ينشرونه
بالدعاية التي قد لا تجدى .

وكان الكثير منهم من المرابطين ، ومعروف أن المرابط هو ذلك
الشخص الذي يعيش على الحدود الإسلامية . مكرساً حياته لصد
غارة الأعداء .

والعبادة والروحانية ، والزهد والورع ، كل ذلك ليس من مظاهر

الضعف ، وإنما هو قوة ؛ وقد كان « غاندى » وحده أشد على الإنجليز من آلاف مؤلفة من الجيوش المناضلة ، وقد كان صوته يهز أرجاء العالم .
يقول ابن سينا عن الصوفى « العارف الشجاع ، وكيف لا وهو بمعزل عن تقيّة الموت » ا هـ .

« التصوف » روحانية ، والروحانية قوة ، ولا يتبارى فى ذلك اثنان .

* * *

حديث الرهبانية موضوع :

و« لم يعد من الجائز أن يقال إن « محمداً » ﷺ أخرج « المتصوفة » ابتداء من الجماعة « الاسلامية » : إذ لا يخفى على أحد اليوم أن الحديث المشهور : « لارهبانية فى الإسلام » الذى ذهب « شبرنجر » فى تفسيره هذا المذهب ؛ حديث موضوع .

وليس من شك أنه وضع فى القرن الثالث الهجرى ، على أكثر تقدير ، تحييناً ، وتدعيماً لتفسير جديد ، للآية السابعة والعشرين ، من سورة « الحديد » ، التى ورد فيها ذكر « الرهبانية » .
وهو تفسير يجرمها ، ويعيد الإسلام منها .

وكان مفسرو القرون الثلاثة الأولى للهجرة أمثال « مجاهد » ، و« أبى أمامة الباهلى » ، . . . ، و« المتصوفة » القدامى الذين عرفوا بالحرص : (أنظر جنيد . دواء الأرواح) ، قد أجمعوا على تفسير هذه الآية تفسيراً يميز الرهبانية ويمتدحها ، قبل أن يشيع التفسير المعارض ، الذى غلبه الزنخشري على جميع التفاسير ، (١) .

(١) من دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة العربية ، المجلد الخامس العدد

تفسير آية الرهبانية :

أما الآية السابعة والعشرون من سورة الحديد ، فهي : « ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

وهذه الآية ليس فيها إنكار للرهبانية ولا ذم لها ، وإنما الذم والإنكار موجه إلى هؤلاء الذين لم يحافظوا عليها ولم يراعوها حق رعايتها .

يقول المحاسبى ، : وقد اختلف في هذا الحرف : فقال « مجاهد » : ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله عليهم ، أى كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله .

وقال « أبو أمامة » ، وغيره ، ما كتبناها عليهم : أى لم نكتبها عليهم ، ولم يبتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله ، فعابهم الله — عز وجل — بتركها ، وهذا أولى التفسيرين بالحق — إن شاء الله — وعليه أكثر علماء الأمة ، فقال الله — عز وجل — : « فما رعوها حق رعايتها ، فذمهم الله تعالى بترك رعاية مالم يفترض ولم يوجب عليهم » ،^(١) .

التصوف ليس دخيلا على الإسلام :

أما أن « التصوف » ، دخيل على الإسلام ، فيسكتفينا في الرد على ذلك أن

نذكر ثلاثة آراء . أولهم : للشيخ « عبد الواحد يحيى » ، وهو فيلسوف مسلم صوفي .

والثاني : للمستشرق الشهير الأستاذ « مَسِينيون » ، الذي يعتبر أعظم باحث في « التصوف » ، بين المستشرقين في العصر الحاضر .

والثالث لصاحب كتاب « التبصير في الدين » ، وهو معنى أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة .

ومؤلفه هو : « الإمام السكامل » ، الفقيه ، الأصولي المفسر ، الاسفراييني .

يرى الشيخ « عبد الواحد » ، أن « التصوف » ، يكون جزءاً جوهرياً من الدين الإسلامي ، إذ أن الدين يكون ناقصاً بدونه بل يكون ناقصاً من جهته السامية ، أعنى جهة المركز الأساسى ، لذلك كانت فروضاً رخيصة ، تلك التى تذهب بـ « الصوفية » ، إلى أصل أجنبي : « يوناني » ، أو « هندي » ، أو « فارسي » ، وهى معارضة بالمصطلحات « الصوفية » ، نفسها ، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً :

وإذا كان هناك من تشابه بين « الصوفية » ، وما يماثلها فى البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعى ، لا يحتاج إلى فرض « الاستعارة » ، ؛ ذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها ، وإن اختلفت فيما تلبسه من صور^(١) .

ويقول الأستاذ « مَسِينيون » : وقد بين « نيكولسون » ، أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول .

والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اقتص بها « متصوفة » ، المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها أثناء عكوف

(١) أنظر كتاب : الفيلسوف المسلم : مكتبة الأنجلو المصرية

المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرئتهما وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل .

ويذكر صاحب كتاب « التبصير في الدين » ، ما يمتاز به « أهل السنة » ، عن غيرهم ، من « الخوارج » ، و « الروافض » ، و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما يمتاز به « أهل السنة » هو :

علم « التصوف » ، و « الإشارات » ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » ، فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة . والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن الشاشي » ، من مشايخهم قريبا من ألف ، وجمع إشاراتهم ، وأحاديثهم ، ولم يوجد في جملتهم قط من ينسب إلى شيء من بدع « القدرية » ، و « الروافض » ، و « الخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبري من النفس ؛ والتوحيد بالخلق والمشية .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشية ، والخلق ، والنقد إلى أنفسهم . وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم ، والتوحيد ،^(١) .

تعليل الإقبال على دراسة التصوف في العصر الحاضر :

لقد كان أتباع « فولتير » ، في القرن الثامن عشر ، وأنصار « رينان » ، في القرن التاسع عشر يسخرون من يتجه إلى دراسة « التصوف » ، وكان تأثيرهما من القوة بحيث كان الناس — شوقيون وغربيون — منصرفين عن هذا الميدان ، مقبلين على العلم الحديث ، معتقدين أنه سيحل كل مشكلة

(١) التبصير في الدين . « لآبي المظفر الإسفراييني » ، المتوفى سنة ٤٧١ هـ ط

« السيد عزت العطار » ، ص ١١٨ .

في الطبيعة وفيما وراءها ، ولكن الناس الآن معنيون بالدراسة الصوفية ،
فما الذي غير اتجاههم ؟ إننا ندع الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد يفسر
لنا ذلك بأسلوبه الرصين :

« ما الذي غير اتجاه العقل الإنساني في القرن التاسع عشر ؟
الذي غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكشف من غوره
فهو اليوم يدعى ويتواضع كثيراً في دعواه : يدعى أنه يصف ما يحس
ولا يزيد .

لازيد أن نقول : إن العلم أخفق في تعزية الإنسان وتعمير قلبه
وضميره كلابل زديد أكثر من ذلك زديد أنه أخفق في دعواه
الوحيدة التي كان خليقاً أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم والمادى ،
وهو اليوم لا يعلم من المادة إلا أنها حركة مجهولة ، في فضاء مجهول .
نعم كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تنفلق فتصبح شعاعاً ، وكل
شعاع هو حركة في « الأثير » وما « الأثير » ؟ شيء كلاً شيء . ليست
له حدود ولا أوصاف ، ولا مقادير يعرفها العلماء

فالعلم المادى لا يعرف المادة إلا في هذه الحدود ، ومن الأدب إذن :
أن يتواضع كثيراً ، فلا يحتكر المعرفة ، ولا ينكر على غيره أن يحاولها
حيث استطاعوا ، وهذا هو الجديد على العلم الحديث ، إنه لا يعلم كل شيء لأنه
مقيّد بالحواس . وإذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء ، فهل يعلمها الفكر ؟
كلا - أيضاً - لأن الفكر محدود ككل شيء في الإنسان .

فلا بد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ووسائل التفكير
لابد لها من البصيرة ، أو من البديهة ، أو من الإلهام .
وذلك هو مجال التصوف ، أو مجال الدين . فهذه هي المعرفة التي يتعاون

عليها الحس . والفكر ، والإلهام ، اه (١) .

* * *

أما بعد : فأرجو أن يكون الحق قد استبان فيما بين الصوفية وغيرهم
من وسائل النزاع ، وإني لعلى يقين من أن نظرة الانصاف ستزيل ما في
نفوس خصومهم من حدة : فيتلاقى الجميع - في رحاب المودة التي يدعو
إليها الصوفية - إخوانا في الله متحابين .
وبالله التوفيق والهداية .

(١) من حديث في الاذاعة .

مشكلة المعرفة الصوفية (١)

- ١ -

يُقسم التاريخ - سياسياً كان أو فكرياً - بفترات ، تبدوا فيها ،
الحيوية الجارفة . وهذه الحيوية ، تتركز في شخص ، أو أشخاص نابغين يلقون
بأنفسهم ، في مجرى الحياة الهادي* الوديع ، فتضطرب الحياة وتموج ، ويعلو
موجها وينخفض ، وتصطرع القوتان - قوة الشعب الذي يتبع التقاليد -
وقوة المصلحين النابغين - فترة تطول ، أو تقصر ، ثم تنحسر الأمواج ،
وتهدأ الأمور ، فإذا بالحياة تأخذ لوناً جديداً ، وإذا بالقيم قد تغيرت ،
في قليل أو في كثير .

ومهما يكن من شيء ، فإن عظمة الرجال - على أي وضع قضوا نحبهم -
لا يتكون هذا العالم ، إلا وقد تركوا أثراً لا ينمحي أبد الدهر .
وقد ينشأ النابغة ، فيجد نفسه في ميدان المعركة ، مختاراً أو مضطرباً ،
وتُشرع نحوه الأسننة ؛ وتنجه إليه السيوف المهتدة ، فيدافع ويهاجم ؛ ويغلب
أو يُغلب ، ويترك ، على كل حال ، أثراً .

- ٢ -

ونشأ المحاسبي ، وفي العالم الإسلامي قوتان هائلتان تصطرعان :

١ - أهل السنة ، ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل .

٢ - المعتزلة ، ولهم ممثلوهم في البصرة ، والكوفة ، وبغداد .

وهذا الصراع بين المعتزلة ، وأهل السنة : صراع طبيعي لا يخلو من مثله

دين من الأديان :

لأنه الصراع الخالد ، بين النصيين والعقليين .

(١) هذه الكلمة كتبها بمناسبة طبع كتاب الرعاية للمحاسبي وهي ، وإن
كانت كتبت في مناسبة خاصة ، فإنها ، من حيث الفكرة ، عامة فيما يتعلق بالمعرفة الصوفية .

إنه النزاع الأبدى بين اللذين يقولون :
إن الدين نص تفسره أسباب النزول ، واللغة ، والرواية . والذين
يقولون :

إن الدين نص يفسره العقل ويوضحه .
ويظن بعض الناس - للوهلة الأولى - أنه لا يمكن أن يكون هناك طرف
ثالث في هذه الخصومة :
فالإنسان إما نصي ؛ وإما عقلي ؛ ولا يحتمل الأمر جلا ثالثاً .

ونشأ المحاسبي ليعلمن هذا الحل الثالث :
لقد هاجم المعتزلة هجوماً عنيفاً ، وألف كتاباً خاصاً في الرد عليهم ،
سماه : « فهم القرآن » .

لقد رأى في نزعتهم العقلية طغياناً ، لا يتناسب ومقام العبودية ، ورأى
أن نزعتهم تحكّم العقل في القرآن وتجعله يسيطر على النص ، ولو كان الأمر
كذلك لكان القائد في الحقيقة وواقع الأمر . هو العقل . لا الكتب
المقدسة . وإذا كان المعتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة ، تتمثل في دفاعهم
الحجيد عنه ، ورد هجمات أعدائه ؛ وتأيينه منطقياً وعقلياً ؛ فإنه مما لا شك فيه :
أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم : « ما وراء الطبيعة » ،
يفسر لنا غامضة ، ويوضح لنا من أمره ما انهم .

لا بد ، إذن ، أن يخضع العقل للنص .
ومذهب المعتزلة ، إذن ، لا يسير في عالم : « ما وراء الطبيعة » ، على
النهج الصواب .

هناك ، إذن ، إفراط ونفريط .

والعبودية الحقة ، فيما يرى المحاسبي : هي المنهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحقة ودخل المحاسبي المعركة ، وسلاحه فيها : « عبودية حقة ، وإخلاص لا حد له ، وتقوى تغمر كل الجوارح ؛ ومن قبل ذلك ومن بعده : دراسة مستفيضة للدين : وسائله وغاياته ، جزئياته وكلياته .

التقوى والعلم ، إذن ، كانا سلاحه في المعركة .
واحتدم النزاع ، وكان لا بد من أن يحتدم ، وثار الفقهاء على المحاسبي وكان لا بد أن يشوروا ، فقد كان المحاسبي ينهج في درسه نهجا آخر غير الطريق العادي التقليدي .

كان يتحدث في الإخلاص ، وفي الورع . وفي الزهد ، وفي الخشوع الخالص لله .

وكان يتحدث في محبة الله ، والآنس به ، والقرب منه .
وكان يتحدث في هيئته ، وجلاله وعظمته .

وكان حديثه عذبا ، طلقا ، ساميا ، فكانت تخشع له الأئمة ، وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ، ويتذكر الناس ما لله من فضل ، فترق قلوبهم ، ويتعاهدون على الاستقامة .

وملأت سمعة المحاسبي أرجاء بغداد ، ثم عبرتها إلى جميع أرجاء المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، وكلما أخذت شهرته في الازدياد ، كلما كثرت خصومه وشائنتوه !!!

ولكنه كان يسير في طريقه ، ثابت الخطى لا يعنيه سوى أن يكون الله راضيا عنه !!!

وتكشفت له الحجب ، وزالت عنه المساتير ، ووصل إلى المعرفة الحقة فأعلن طريقها .

وطريقها ليس حساساً بخطيء ، وليس عقلاً يضل ، وإنما هو : بصيرة
«وضاءة وروح ضافية» .

- ٦ -

واستمرت الخصومة بين :
النصيين ، ويمثلهم الإمام أحمد .
والبصيريين ، ويمثلهم الإمام المحاسبي .
والعقليين ، ويمثلهم المعتزلة .
ومن غريب الأمر : أن أية قوة من هذه القوى ، لم تختر صريعة ،
بل بقيت قوية ، واستمرت في كفاح ونضال ، حتى يومنا هذا .
تسلسلت فكرة المحاسبي ، وتمثلت خير تمثيل في الإمام الغزالي ، ثم في
«بقية الصوفية من بعده ، حتى كان العصر الحاضر ، فكان يمثلها في أسلوب
جديد ، وتعبير صادق ، المرحوم : « الشيخ عبد الواحد يحيى » ، الذي توفي
سنة بضعة سنوات .

وتسلسلت فكرة الإمام أحمد ، فتمثلت في الإمام : « ابن تيمية » ، الذي
وصح لها المنطق ، وأرسى لها القواعد والأصول ، واستمرت قوية إلى عهدنا
الحاضر ، وكان يمثلها المرحوم : « الشيخ رشيد رضا » ، تمثيلاً قوياً .
وتسلسلت فكرة المعتزلة ، رأكدة حيناً ، وقوية حيناً آخر ، حتى كان جمال
الدين الأفغانى ، فدفعها دفعا قوياً إلى عالم الظهور .

وكان « الشيخ محمد عبده » ، من أهم العوامل في نشرها ، ملطفة خفيفة
تكاد تخفى ، أو تكاد تلبس ثوب السلفية .

وحمل اللواء من بعده المرحوم : « الشيخ المراغى » ، والمرحوم : « الشيخ
مصطفى عبد الرازق » .

وفكرة الإمام محمد عبده ، تتمثل فيهما حقيقة ، لا في الشيخ رشيد رضا
كما يظن ، كثير من الناس .

لا تزال تلك القوى الثلاث تتصارع حتى عهدنا هذا ، و نعتقد أنها
ستستمر ؛ ذلك أنها تمثل نزعات فطرية في بني الإنسان :
فبعضهم : واقعي ، يتجه إلى النص ، ولا يريد ، أو لا يمكنه أن يسير
إلى أبعد منه .

وبعضهم : يحتفظ بشخصيته ، قوية جارفة لا تلين ، فهو عقلي أو اعتزالي .
وبعضهم : رقيق الشعور ، مرهف الحس ، ملائكي النزعة ، فهو
بصيري أو صوفي .

نزعات ثلاث تقوم على فطر مختلفة ، وهذه الفطر تستمر في بني البشر
ما دام ، على وجه الأرض ، أفراد من النوع الإنساني ، ومن هنا كان خطأ
هؤلاء الذين يجارون التصوف ، أو الاعتزال ، أو النصيين ، على أمل أن
يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات .
وباقه التوفيق .

المنفذ من الضلال

لجنة الإسلام الفزالي

حقيقه وعلق عليه

الدكتور عبد الحليم محمود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ توطئة

الحمد لله ، الذي يفتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد
المصطفى ، صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله ، وأصحابه ، الهادين
من الضلالة .

أما بعد : فقد سألتني (١) أيها الأخ في الدين ، أن أبت إليك غاية العلوم
وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها .

كتب أحد المعاصرين للغزالي الذين اتصلوا به وصاحبوه وهو عبد الغافر ابن
اسماعيل الفارسي المتوفى سنة ٥٢٩ هـ مؤرخاً للإمام الغزالي فقال : قال أبو الحسن
عبد الغافر بن اسماعيل الخطيب الفارس خطيب نيسابور : محمد بن محمد بن محمد
أبو حامد الغزالي ، حجة الإسلام والمسلمين ، إمام أئمة الدين ، لم تر العيون مثله
لساناً وبياناً ، ومنطقاً وخطراً وذكاءً وطبعاً ، أخذ طرفاً في صباه بطوس
من الفقه على الإمام أحمد الراذكافي ، ثم قسم نيسابور مختلفاً إلى درس إمام
الحرمين في طائفة من الشبان من طوس ، وجد ، واجتهد حتى تخرج في مدة
قريبة ، وبز الأقران وحل القرآن ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه
في أيام إمام الحرمين ، وكان الطلبة يستفيدون منه ، ويدرس لهم ، ويرشدهم ،
ويجتهد في نفسه . وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف . وكان الإمام مع علو
درجته وسمو عبارته وسرعة جريه في النطق والكلام ، لا يصفي نظره إلى الغزالي
سرا لإبائه عليه في سرعة العبارة وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصنيف
ولأن كان متخرجاً به منتسباً إليه كما لا يخفى من طبع البشر ، ولكن يظهر
التبجح به والاعتداد بمكانه ظاهراً خلاف ما يضمرة ، ثم بقي كذلك إلى انقضاء
أيام الإمام .

==

== نخرج من نيسابور وصار إلى العسكر واحتل من نظام الملك محل القبول ، وأقبل عليه الصاحب لعلو درجته ، وظهور اسمه ، وحسن مناظرته ، وجرى عبارته . وكانت تلك الحضرة محظ رحال العلماء ، ومقصد الأئمة والفصحاء ، فوعدت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة وملاقة الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ومناقدة السكبار ، وظهر اسمه في الأفاق وارتفق بذلك أكل الارتفاق ، حتى أدت به الحال إلى أن رسم للصير إلى بغداد للقيام بتدريس المدرسة الميمنية النظامية بها فصار إليها : وأعجب السكك لتدريسه ومناظرته ، وما لقي مثل نفسه ، وصار بعد إمامة خراسان لإمام العراق .

ثم نظر في علم الأصول وكان قد أحكمه فصنف فيه تصانيف ، وجدد المذهب في الفقه فصنف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف ، لجدد فيه أيضا تصانيف . وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة فانقلب الأمر من وجه آخر ، وظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة وممارسة السكتب المصنفة فيها وسلك طريق الزهد والتأله ، وترك الحشمة وطرح ما نال من الدرجة الاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، فخرج عما كان فيه وقصد بيت الله وحج ثم دخل الشام وأقام في تلك الديار قريبا من عشر سنين يطوف ويزور المشاهد المعظمة وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها ، مثل إحياء علوم الدين . والسكتب المختصرة منه ، مثل الأربعين وغيرها من الرسائل التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم .

وأخذ في مجاهدة النفس ، وتدبير الأخلاق ، وتحسين الشرائع ، وتهذيب المعاش ، فانقلب شيطان الرعونة ، وطلب الرياسة والجاه ، والتخلق بالأخلاق الذميمة ، إلى سكون النفس . وكرم الأخلاق والفراغ عن الرسوم والترتبات ، وتزيا بزى الصالحين وقصر الأمل ووقف الأوقات على هداية الخلق ، ودعائهم إلى ما يعينهم من أمر الآخرة وتبخيص الدنيا والاشتغال بها على السالكين ، والاستعداد الرحيل إلى الدار الباقية ، والانقياد بكل من يتوسم فيه أو يشم منه رائحة المعونة أو التيقظ بشيء من أنوار المشاهدة حتى مرن على ذلك ولان . ==

== ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته مشتغلاً بالتفكير ، ملازماً للوقت ، مقصوداً تقيماً وذخراً للقلوب لسكل من يقصده ويدخل عليه ، إلى أن أتى على ذلك مدة ، وظهرت التصانيف وفشت المكتتب ولم تبد في أيامه مناقصة لما كان فيه ولا اعتراض لأحد على ما أمره . حتى انتهت نوبة الوزارة إلى الأجل فخر الملك جمال الشهداء نعمده الله برحمته ، وتزينت خراسان بحشمته ودولته . وقد سمع وتحقق بمكان الغزالي ودرجته وكال فضله وسالته وصفاء عقيدته ومعاشرته . فتبرك به وحضره وسمع كلامه ، فاستدعى منه أن لا يبقى أنفاسه وفوائده عقيمة لا استفادة منها ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الإلحاح وشدد في الإقتراح إلى أن أجاب إلى الخروج وحمل إلى نيسابور وكان الليث غائباً عن عربنه ، والأمر خافياً في مستور قضاء الله ومكنونه ، فأشير عليه بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية عمرها الله فلم يجد بدأ من الإذعان لمولاه ، ونوى بإظهار ما اشتغل به هداية الشداة ، وإفادة القاصدين ، دون الرجوع إلى ما انخلع عنه وتحرر عن رقه من طلب الجاه وممارسة الأقران ومكابرة المعاندين ؛ وكم قرع حصاه بالخلاف والوقوع فيه ، والطعن فيما يذريه ويأتيه ، والسعاية به والتشنيع عليه ، فما تأثر به ولا اشتغل بجواب الطاعنين ولا أظهر استيحاءشاً بغميزة المخلطين . واتقد زده مراراً وما كنت أحدث نفسي ماعهدته في سالف الزمان عليه من الزعارة وإيحاءش الناس والنظر إليهم بعين الازدراء ، والاستخفاف بهم كبراً وخيلاء ، واغتراراً بما رزق من البسطة في النطق والخاطر والعبارة ، وطلب الجاه والعلو في المنزلة لأنه صار على الضد وتصفي عن تلك السكودرات . وكنت أظن أنه متلفع بجلباب التكلف متيمن بما صار إليه . فتحققت بعد التروى والتنقير أن الأمر على خلاف المظنون وأن الرجل أفاق بعد الجنون ، وحكى لنا في ليال كيفية أحواله من ابتداء ما ظهر له من سلوك طريق التأله وغلبة الحال عليه بعد تبرجه في العلوم واستطالته على السكل بكلامه ، والاستعداد الذي خصصه الله به في تحصيل أنواع العلوم، وتمسكته من البحث والنظر حتى تبرم من الاشتغال ==

== بالعلوم الغربية عن المعاملة وتفكر في العاقبة وما يجدى وما ينفع له الآخرة ، فابتدأ بصحبة الفارمدى وأخذ منه استقتاح الطريقة ، وامثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والامعان في النوافل واستدامه الأذكار والجد والاجتهاد طلباً للنجاة ، إلى أن جاز تلك العقبات ، وتكلف تلك المشاق وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده . ثم حكى أنه راجع العلوم وغاض في القنون وعاود الجد والاجتهاد في كتب العلوم الدقيقة واقتفى تأويلها حتى انفتح له أبوابها ، وبقي مدة في الوقائع وتكافؤ الأدلة وأطراف المسائل ، ثم حكى أنه فتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شيء وحمله على الإعراض عما سواه حتى سهل ذلك وهكذا هكذا إلى أن ارتاض كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق ، وصار ما كنا نظن به تمرساً وتخلقاً ، طبقاً وتحققاً ، وإن ذلك أثر السعادة ، المقدره له من الله .

ثم سألنا عن كيفية رغبته في الخروج من بيته . والرجوع إلى ما دعى إليه من أمر نيسابور فقال معتدراً عنه : ما كنت أجوز في ديني إلى أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالإفادة . وقد حق على أن أروح بالحق وأطلق به وأدعو إليه ، وكان صادقا في ذلك

ثم ترك ذلك قبل أن يترك وعاد إلى بيته ، واتخذ في جواره مدرسه لطلبة العلم ، وخانقاه للصوفية ، وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ، والعود للتدريس ، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة ، إلى أن أصحابه عين الزمان ، وضنت به الأيام على أهل عصره ، فنقله إلى كريم جواره بعد مقاساة أنواع من التقصد والمناوأة من الخصوم ، والسعي به إلى الملوك ، وكفاه الله وحفظه وصانه من أن تنوشه أيدي المنكيات ، أو ينتهك ستر دينه بشيء من الزلات . وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ ، ومجالسة أهله ، ومظالمة الصحيحين البخارى ومسلم اللذين هما حجة الإسلام ، ولوعاش لسبق السلك في ذلك الفن بيسير من الأيام ==

== يستفرغه في تحصيله. ولا شك أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية واشتغل بآخر عمره بسببها ولم تتفق له الرواية ، ولا ضرر فيما خلفه من الكتب المصنفة في الأصول والفروع ، وسائر الأنواع تخذل ذكره ، وتقرر عند المطالعين المستفيدين منها أنه لم يخلف مثله بعده . مضى إلى رحمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وحماسة ودفن بظاهر قضية طابران والله تعالى يخصه بأنواع الكرامة في آخرته . كما خصه الله بفضول العلم في دنياه بمنه . ولم يعقب إلا البنات . وكان له من الأسباب إرثاً وكسباً ، ما يقوم بكفايته ، ونفقة أهله وأولاده ، فما كان يباسط أحداً في الأمور الدنيوية ، وقد عرضت عليه أموال فما قبلها وأعرض عنها واكتفى بالقدر الذي يصون به دينه ولا يحتاج معه إلى التعرض لسؤال ومنال من غيره .

وبما كان يعترض به عليه وقوع خلل من جهة النحو يقع في أثناء كلامه . وروجع فيه فأ نصف من نفسه ، واعترف بأنه ما مارس ذلك الفن واكتفى بما يحتاج إليه في كلامه ، مع أنه كالمؤلف الخطب ، ويشرح الكتب بالعبارات التي تعجز الأدباء والفحصاء عن أمثالها ، وأذن للذين يطالعون كتبه فيعثرون على خلل فيها من جهة اللفظ أن يصاحوه ويعذروه فما كان قصده إلا المعاني وتحقيقها ، دون الألفاظ وتلفيقها .

وبما نقم عليه ما ذكر من الألفاظ المستبشرة بالفارسية في كتاب كيمياء السعادة والعلوم ، وشرح بعض الصور والمسائل بحيث لا يوافق مراسم الشرع ، وظاهر ما عليه قواعد الإسلام . وكان الأولى به والحق أحق ما يقال ، ترك ذلك التصنيف والإعراض عن الشرح به . فإن العوام ربما لا يحكون أصول القواعد بالبراهين والحجج ، فإذا سمعوا شيئاً من ذلك تخيلوا منه ما هو المضرب بعقائدهم ، وينسبون ذلك إلى مذهب الأوائل . على أن المصنف اللبيب ، إذا رجع إلى نفسه علم أن أكثر ما ذكره بما رمز إليه إشارة الشرع . وإن لم يسبح به ، ويوجد أمثاله في كلام مشايخ الطريقة مرموزة ومصرح بها متفرقة، وليس لفظ ==

==منها إلا وكما يشعر أحد وجوهه بكلام موهم فإنه يشعر سائر وجوهه بما يوافق عقائد أهل الملة ، فلا يجب إذا حمله على إلا على موافق ، ولا ينبغي أن يتعلق به في الرد متعلق ، إذا أمكنه أن يبين له وجهاً في الصحة يوافق الأصول ، على أن هذا القدر يحتاج إلى من يظهره ويقوم به وكان الأولى أن يترك الإفصاح بذلك كما تقدم ذكره ، وليس كل ما يتفرد ويتمشى لأحد تقديره ينبغي أن يظهره بل أكثر الأشياء فيما يدري يطوى ولا يحكى ، فعلى ذلك درج الأولون من السلف الصالحين ، ابقاء على مراسم الشرع وصيانة الدين عن طعن الطاعنين وغيره المارقين الجاحدين والله الموفق للصواب .

وقد ثبت أنه سمع سنن أبي داود السجستاني: عن الحاكم أبي الفتح الحاكم الطوس وما عثرت على سماعه ، وسمع من الأحاديث المتفرقة آلافاً من الفقهاء فما عثرت عليه ما سمعه من كتاب مولد النبي صلى الله عليه وسلم من تأليف أبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني ، رواية الشيخ أبي بكر أحمد بن الحرث الأصهباني الإمام ، عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان بن المصنف ، وقد سمعه الإمام العزالي من الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد الخوارى خوار طابران مع إبنه الشيخين عبد الجبار وعبد الحميد وجماعة من الفقهاء . ومن ذلك ما قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الله بن محمد أحمد الخوارى ، أخبرنا أبو بكر بن الحارث الأصهباني ، أخبرنا أبو محمد بن حيان ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم بن إبراهيم بن المنذر الخوارزمي ، حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت ، حدثني الزبير بن موسى . عن أبي الحويرث قال سمعت عبد الملك بن مروان ، سأل قتات بن أشيم السكناني ، أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر مني ، وأنا أسن منه ، ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل وتمام السكتاب في جزء مسموع له (نقله الأستاذ عبد الكريم عثمان عن الطبقات الكبرى للسيبكي ، في كتابه النفيس « سيرة الغزالي ») .

وأحكى لك ما قسيته في استخلاص الحق ، من بين اضطراب الفرق
مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرات عليه من الارتفاع عن حضيض
التقليد ، إلى يَفَاع^(١) الاستبصار .

وما استفدته : أولاً من علم الكلام .

وما اجْتَوَيْتَهُ^(٢) — ثانياً — من طرق أهل التعليم ، القاصرين
لدرك الحق على تقليد الإمام .

وما ازدريته — ثالثاً — من طرق النملسف .

وما ارتضيته آخرأ من طريقه التصوف .

وما انجلى لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق .

وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة .

وما ردنى إلى معاودتى ، « بنيسابور » ، بعد طول المدة .

فابتدرت لإيجابتك إلى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ؛
وقلت مستعيناً بالله ، ومتوكلاً عليه ، ومستوقفاً منه ، وملتجئاً إليه :

إعلموا - أحسن الله تعالى إرشادكم ، وألان للحق قيادكم - أن اختلاف
الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة فى المذاهب على كثرة الفرق
وتباين الطرق ، بجر عميق ، غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون
وكل فريق يزعم أنه الناجى . و « كل حزب بما لديهم فرحون » . وهو
الذى وعدنا به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه ، وهو الصادق الصدوق ،

(١) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٢) تقول : اجتويت البلد إذا كرهت المقام به إن كنت فى نعمة .

حيث قال : « ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة ، الناحية منها واحدة (١) ، فقد كان ما وعد أن يكون .

ولم أزل في عنفوان شبابي — منذ راهقت البلوغ . اقبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين — أقتحم لجنة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الخدور ، وأتوغل في كل مظلمة ، واتهجم على كل مشكله ، وأتفحم كل ورطة ، وأنفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ؛ لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته .
ولا ظاهرية إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .

(١) روى هذا الحديث عن اختلاف في متنه ، في عدة كتب ، بعدة أسانيد .

ولكنه لم يروى في « صحيح البخاري » ولا في « صحيح مسلم » .

وقد قال « ابن حزم » عنه : إنه لا يصح أصلاً من جهة الإسناد .

وقال « ابن الوزير » في « العواصم والقواصم » : إياك أن تغتر بزيادة كلها في النار إلا واحدة . فإنها زيادة فاسدة ؛ ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة .

على أنه قد روى هذا الحديث بالخطأ الآتية : « اثنتان وسبعون في الجنة ، وواحدة في النار » . وقال المقدسي في « أحسن التقاسيم » ، إن الحديث على هذا الوضع أصح اسناداً .

ومع ذلك فقد أخذ مؤرخو الأديان أمثال « الشهرستاني » يعدون الفرق التي في النار ، ويتكلفون الوصول بها إلى « اثنتين وسبعين فرقة » ، مع أن تشعب الفرق واختلاف المذاهب والآراء لا ينتهي حتى تقوم الساعة .

انظر مقدمة كتاب « التبصير في الدين » التي كتبها « الشيخ زاهد السكوثرى » رحمه الله تعالى .

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنهه فلسفته .
ولا متكلماً إلا وأجهد في الأطلاع على غاية كلامه ومجادلته .
ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .
ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .
ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته ، في
تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي ، وديني ، من أول
أمرى ، وريعان عمرى : غريزة ، وفطرة من الله ، وضعتا في جبتي ،
لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على
العقائد الموروثة ، على قرب عهد سنّ الصبا ؛ إذ رأيت صبيان النصرارى
لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على
التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام . وسمعت الحديث
المروى عن رسول الله ﷺ حيث قال :

« كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ،
فتتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة
بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتميز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ،
والوالدين والأستاذين ، والتميز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي
تميز الحق منها عن الباطل اختلافات .

فقلت فى نفسى : أولاً ، إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من
طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى أن : العلم اليقيني : هو الذى ينكشف
فيه المعلوم انمكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ،
ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارناً

لليقين ، مقارنة لو تسجدت بإظهار بطلانه - مثلاً - من يقبل الحجر ذهباً
والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ، فإنى إذا علمت أن العشرة
أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى قائل : لا بل الثلاثة أكثر ، بدليل أنى أقلب
هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشك - بسببه - فى
معرفةى ، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه !
فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع
من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس
بعلم يقينى .

مدخل السفسطة

وجحد العلوم

ثم فنشئت عن علوي ، فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات ، والضروريات .

فقلت : الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات ، وهي الحسيات ، والضروريات : فلا بد من إحكامها أولاً ؛ لآتيقن أن ثقتي بالمحسوسات ، وأمان من الغلط في الضروريات ، من جنس أمان الذي كان من قبل في التقليدات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر فيه : ولا غائلة له .

فأقبلت بمجد بليغ ، أتأمل في المحسوسات والضروريات ، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؟ فانهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ، ويقول : من أين الثقة بالمحسوسات ؟ وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر إلى الظل ، فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة — بعد ساعة — تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بفتة ، بل على التدرج ذرة ، ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار .

هذا ، وأمثاله ، من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس ، بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ، ويخونه ، تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته .

فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً ، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات ، التي هي من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون

حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً .

فقالت المحسوسات : بهم تأمن أن تسكون ثقمتك بالعقليات كثمتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لسكنت تستمر على تصديقي ، فاعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، إذا تجلى ، كدب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلي ذلك الإدراك ، لا يدل على استحالته !!

فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً ، وأيدت إشكالها بالمنام ، وقالت : أما تراك تعتقد في النوم أموراً ، وتتنخيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً ، واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يسكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل ، وطائل ؟

فهم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها ، لسكن يمكن أن تطراً عليك حالة تسكون نسبتها إلى يقظتك ، كمناسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها فإذا وردت تلك الحالة ، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها .

ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم ؛ إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم إذا غاصوا في أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم أحوالاً لا توافق هذه المعقولات .

ولعل تلك الحالة هي الموت ؛ إذ قال رسول الله ﷺ :

« الناس نيام ، إذا ماتوا انتبهوا » .

فعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة . فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك : فكشفتنا عنك غطاءك فبصرك اليسوم حديد .

فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك

علاجاً فلم يتيسر؛ إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل .
فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين، أنا وفيهما على السَّفْسَطَةِ بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال،

حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة، موثوقاً بها على أمن ويقين .

ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة، فقد ضيق رحمة الله الواسعة؛ ولما سئل رسول الله عليه السلام عن «الشرح»، ومعناه قوله في تعالى :

«فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ» . فقال :

«هو نور، يقذفه الله تعالى في القلب» .

فقيل : «وما علامته ؟» .

فقال : التجافي عن دار الغرور، والإجابة إلى دار الخلود، وهو الذي قال عليه السلام فيه :

«إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره» .
فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف .

وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحيان، ويجب التردد له كما قال عليه السلام : «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها» .

والمقصود من هذه الحكايات أن يُعْمَلَ في كمال الجد في الطلب، حتى يُنْتَهَى إلى طلب ما لا يطلب . فإن الأوليات ليست مطلوبة؛ فإنها حاضرة . والحاضر إذا طلب نفر، واختفى . ومن طلب ما لا يطلب، فلا يهتم بالتقصير في طلب ما يطلب .

أصناف الطالبين

ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله . وسعة جوده ، انحصرت
أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

- ١ - المتكلمون : وهم يدعون أنهم أهل الرأي ، والنظر .
- ٢ - الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون
بالاقتباس من الإمام المعصوم .
- ٣ - الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق ، والبرهان .
- ٤ - والصوفية : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل
المشاهدة ، والمكاشفة .

فقلت في نفسي : الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم
السالكون سبل طلب الحق ، فإن شذ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق
مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقتة : إذ من شرط
المقلد أن لا يعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو
شعب^(١) لا يرأب^(٢) وشعث^(٣) لا يلم بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب
بالنار ، ويستأنف له صنعة أخرى مستجدة .

فابتدرت لسلك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق :

- مبتدئاً بعلم الكلام .
- ومثنيا بطريق الفلسفة .
- ومثلثاً بتعليم الباطنية .
- ومربعاً بطريق الصوفية .

(١) الشعب : من الأضداد ، وهو هنا بمعنى الشق .

(٢) يرأب : يصلح . (٣) شعث : متفرق .

١ — علم الكلام

مقصوده وحاصله

سم إلى ابتدأت بعلم الكلام ، فصّلته وعقّلته ، وطالعت كتب المحققين منهم .

وصنّفت فيه ما أردت أن أصنّف .

فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودي .

وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة^(١) .

(١) نرى أن الإمام الغزالي — مع هدمه في النهاية لعلم الكلام — كان مجاملاً للمتكلمين ، وقد وضّحنا رأينا في هذا العلم ، في المقدمة ، ويسرنا أن نذكر هنا رأي السلف في شيء من الاستفاضة .

قال ابن عبد البر ، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ في كتاب «جامع بيان العلم وفضله» :
نهى السلف — رحمهم الله — عن الجدل في الله جل ثناؤه في صفاته ، وأسمائه .
وأما الفقه فأجمعوا على الجدل فيه ، والتناظر ؛ لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع إلى الأصول : للحاجة إلى ذلك ، وليس الاعتقادات كذلك ؛ لأن الله — جل وعز — لا يوصف عند الجماعة — أهل السنة — إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به سوله ﷺ ، أو أجمعت الأمة عليه . وليس كمثل شيء ، فيدرك بقياس ، أو إنعام نظر .
وقد نهينا عن التفسكير في الله ، وأمرنا بالتفكير في خلقه الدال عليه . وعن مصعب ابن عبد الله الزبيري ، قال : «كان مالك بن أنس يقول : الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه ، نحو الكلام في رأي جهم ، والقدر ، وما أشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل» . وقال أيضاً في الكتاب نفسه «وقال : أحمد ابن حنبل ؛ لا يقبح صاحب كلام أبداً ، ولا نكاد نرى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل . وقال مالك : رأيت إن جاهد من هو أجدل منه ، أيلع دينه كل يوم ، لدين جديد ؟» .

فقد أتق الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق ، على

== قال أبو عمر . تناظر القوم وتجادلوا في الفقه ، ونهوا عن الجدل في الاعتقاد ، لأنه يؤدي إلى الانسلاخ من الدين ، ألا ترى إلى مناظرة بشر ، في قوله عز وجل : « ما يسكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعمهم ، حين قال : هو بذاته في كل مكان . فقال له خصمه ؛ فهو في قلنسوتك ، وفي حشك ، وفي جوف حمار : تعالى الله عما يقول . حكى ذلك وكيع رحمه الله . وأنا والله أكره أن أحكى كلامهم . . . فمن هذا وشبهه نهى العلماء . » من كتاب « التهديد للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرزاق . » وقد جاء فيه أيضاً عن شيخ الإسلام الهروي المتوفى سنة ٤٨١ هـ .

« وأخرج عن طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : خرج رسول الله ﷺ ، على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر . فخرج مفضياً حتى وقف عليهم ، فقال : « يا قوم ! بهذا ضلت الأمم قبلكم ، باختلافهم على أتبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ! وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن ، فصدق بعضه بعضاً . ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابهه فآمنوا به . » وأخرج عن أبي هريرة ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع في القدر ، فغضب ، حتى أحمر وجهه ، ثم قال : « أهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر . عزمت عليكم ألا تنازعوا . » وأخرج عن أبي الدرداء ، وأبي أمامة ، وأنس بن مالك ، ووائل بن الأسقع ، قالوا : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نتنازع في شيء من الدين ، فغضب غضباً شديداً ، لم يغضب مثله ، ثم انتهرنا . قال : يا أمة محمد ! لا تهيجوا على أنفسكم ، ثم قال : « أهذا أمرتكم ؟ » أو ليس عن هذا نهيتكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . ثم قال : ذروا المراء لثقله خيره ، ذروا المراء ، فإن نفعه قليل ، ويهيج العداوة بين الإخوان ، ذروا المراء ، فإن المراء لا تؤمن فنته ، ذروا المراء ، فإن المراء يورث الشك ، ويحبط العمل ، ذروا المراء ، فإن المؤمن لا يمارى ، ذروا المراء ؛ فكفى بك إثماً ألا تزال يمارياً ، ذروا المراء فإن الماري لا أشفع له يوم القيامة ، ذروا ==

ما فيه صلاح دينهم ودينهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار .
ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فلم يجوا بها ،
وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها .
فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام
مرتب ، يكشف عن تلميذات أهل البدعة المحدثه ، على خلاف السنة الماثورة .
فمنه نشأ علم الكلام وأهله (١) .

المراء ، فأنا زعيم بثلاثة آيات في الجنة ، في وسطها ، وربضها ، وأعلامها لمن
ترك المراء ، وهو صادق ، : زروا المراء ، فإنه أول ما تمنأى الله عنه بعد عبادة
الأوثان ، وشرب الخمر ، ذروا المراء ، فإن الشيطان قد يتس من أن يعبد .
ولكن رضى بالتحريش ، وهو المراء في الدين ، ذروا المراء ، فإن بنى إسرائيل
افترقوا على إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى على اثنين وسبعين فرقة وإن أمتي
ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم على الضلالة ، إلا السواد الأعظم ، قالوا
يارسول الله ومن السواد الأعظم ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابي ، ثم
قال : إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً ، فطوبى للغرباء ، قالوا : يارسول
الله ، ومن الغرباء ؟ قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس ، ولا يمارون
في دين الله ، .

تمهيد ص ٢٨٢ — ٢٨٣

(١) يتحدث الإمام الغزالي عن علم الكلام غير مرة في كثير من كتبه ،
وتحدث في « الإحياء » عن الآراء في كونه حلالاً أم حراماً ، ثم قال :
والى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل
الحديث من السلف .

قال ابن عبد الأعلى رحمه الله : سمعت الشافعي رضى الله عنه يوم ناظر حنفا
الفرد . وكان من متكلمي المعتزلة يقول : لأن يلقي الله عز وجل العبد بكل ذنب
ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام . ولقد سمعت
من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه .

فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه ، فأحسنوا الذب عن السنة ، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة .

== وقال أيضاً : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام . وحكى السكرائيس ، أن الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام فغضب . وقال سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه أخزاهم الله .

ولما مرض الشافعي رضي الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقا له من أنا : فقال حفص الفرد : « لاحفظك الله ، ولارعاك حتى تتوب بما أنت فيه » ؛ وقال أيضا : « لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد » ؛ وقال أيضاً « إذا سمعت الرجل يقول : « الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له » قال الزعفراني ، قال الشافعي حكى في أصحاب الكلام . أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر . ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة . وأخذ الكلام .

وقال احمد بن حنبل : « لا يفلح صاحب الكلام أبدا ، ولا تسكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل ، وبالغ في ذمه حتى هجر الحادث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة ، وقال له ويحك ألسنت تحكي بدعتهم أو لا ثم ترد عليهم ! ألسنت تحمل الناس يتصنيفك على مطالعة البدعة ، والتفكير في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث . وقال احمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة » .

وقال مالك رحمه الله : رأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ . يعني أن أقوال المتجادلين تتفاوت .

وقال مالك رحمه الله أيضاً : « لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء » . فقال بعض أصحابه في تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا .

== وقال أبو يوسف : « من طلب العلم بالكلام تزندق » .

ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلبوها من خصومهم واضطروهم إلى تسليمها : إما التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار .

وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم . وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً .

فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه (١) شافياً .

== وقال الحسن : « لا تجادلوا أهل الأهواء ، ولا تجالسوهم ، ولا تسمعوا منهم » . وقد اتفق أهلا الحديث من السلف على هذا . ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه ، وقالوا : « ماسكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق ، وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم ، إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر : ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« هلك المنتطعون ، هلك المنتطعون ، هلك المنتطعون » ؟ أى المتعمقون

في البحث والاستقصاء .

واحتجوا أيضاً : بأن ذلك لو كان من الدين ، لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثني عليه وعلى أربابه ؛ فقد علمهم الاستنجاة ، وندبهم إلى علم الفرائض ، وأثنى عليهم ، ونهاهم عن الكلام في القدر وقال : « أمسكوا عن القدر » وعلى هذا استمر الصحابة رضی الله عنهم - فالزيادة على الاستاذ طغيان ، وظلم ، وهم الأستاذون والقذوة - ونحن الاتباع ، والتلامذة .

(١) وتحدث الإمام الغزالي في الإحياء أيضاً عن منفعة علم الكلام وفائدته

معبراً بهذا النص عن رأيه الخاص فقال :

وأما منفعته ، فقد يظن أن فائدته : كشف الحقائق ، ومعرفة ما هي عليه ، وهيات ، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخييط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف وهذا إذا سمعته من محدث ؛ أو حشوى ، ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا . فأسمع هذا من خبر الكلام ، ثم قلناه ==

نعم ، لمّا نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه ، وطالت المدّة ، تشوّق المتكلمون إلى محاولة الذنب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور ، وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها . لكن لمّا لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يحو بالسكينة ظلمات الحيرة ، في اختلافات الخلق .

ولا أبلغه أن يكون قد حصل ذلك لغيري . بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات .

والغرض الآن حكاية حالى لا الإنكار على من استشفى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء ينتفع به المريض ويستشفى به آخر .

بعد حقيقة الخبرة ، وبعد التخلّط فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام ، وتحقيق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود .

٢ - الفلسفة

أحاصيلها - ما يذم منها ، وما لا يذم - وما يكفر قائله ، وما لا يكفر -
وما يبدع فيه ، وما لا يبدع - وبيان ما سرقوه من كلام أهل الحق ، ومزجوه
بكلامهم لترويح باطلهم في درج ذلك - وكيفية حصول نفرة النفوس من
ذلك الحق - وكيفية استخلاص صراف الحقائق الحق الخالص من الزيف
والبهرج من جملة كلامهم

ثم إنى ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة . وعلمت يقينا
أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى
يساوى أعلمهم في أضل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ، ويجاوز درجته : فيطالع
على ما لم يطالع عليه صاحب العلم ، من غور ، وغائلة . وإذ ذلك يمكن
أن يكون ما يدعيه من فساده حقا .

ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك .

ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم ، حيث اشتغلوا بالرد عليهم ،
إلا كلمات معقدة مبددة ، ظاهرة التناقض والفساد ، لا ميطن الاغترار بها
بعقل عاى ، فضلا عن يدعى دقائق العلوم . فعلت : أن ردّ المذهب قبل
فهمه والاطلاع على كنهه ، رعى في عمائة .

فשמرت عن ساق الجرد في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد
المطالعة ، من غير استعانة بأستاذ . وأقبلت على ذلك في أوقات فراغى ،
من التصنيف ، والتدريس في العلوم الشرعية وأنا ممنون^(١) بالتدريس ،
والإفادة لثلاثمائة نفس ، من الطلبة ببغداد .

فأطلعنى الله سبحانه وتعالى ، بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلصة ،

(١) مبتلى .

على منتهى علومهم ، في أقل من سنتين . ثم لم أزل أو اظب على التفسر فيه ، بعد فهمه ، قريبا من سنة ، أعارده وأردده ، وأتفقذ غوائله ، وأغواره حتى اطلعت على ما فيه من خداع ، وتلبيس ، وتحقيق ، وتخييل ، اطلعا لم أشك فيه .

فاسمع الآن حكايته ، وحكاية حاصل علومهم : فإن رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً ، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وضمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القديما منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم ، في البعد عن الحق ، والقرب منه .

أصناف الفلاسفة

وشمول وصحة الكفر كافتهم

إعلم : أنهم - على كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم - ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

الدهريون .

والطبيعيون .

والإلهيون .

الصنف الأول : الدهريون^(١) : وهم طائفة من الأقدمين ، جحدوا

(١) بعد أن ذكر سنفلانا كلام اليعقوبي ، والغزالي عن الدهرية قال :
د فإننا لو حاولنا استنباط الأصول التي اعتمدها اليعقوبي والغزالي فيما
ذكراه في حق الدهرية وجدنا أرسطو يقول في كتاب السماء والعالم حاكيا عن
أنبا ذو قليس :

إن هذا العالم لم يحدته أحد من الآلهة ولا من البشر بل كان أبدا . اهـ
ثم قال أرسطو في المقدمة الثالثة من كتاب السماء ما نصه :

أما من ذهب إلى قول أنبا ذو قليس وديموقريطس فإنه قال : إن الأركان
لم تحدث باستحالة بعضها في بعض بل لاحتوث إلا في الظاهر فانها موجودة على
حدتها فتمتدق بعد الاجتماع . اهـ

ثم قال في كتاب الفساد والتكوين في المقالة الأولى : وعندهم أن الأركان إذا
اجتمعت فقد تحدث الأجسام وإذا افتترقت فسدت الأجسام .

وعندهم أيضا أن الوجود لا يصير أبدا إلى العدم . اهـ
وقال ديوجانس في تاريخ الحكاء : ورأيهم أن العدم لا يحدث منه شيء
وأن الوجود لا يصير إلا العدم . اهـ

فإذا ما قابلنا هذه النصوص بما في تاريخ اليعقوبي وجدناها مطابقة فصلا =

الصانع المدبر^(١) ، العالم القادر ، وزعموا : أن العالم لم يزل موجوداً كذلك

== فصلا لما ذكره من مذهب الدهريين .

فتقرر حينئذ أن الدهرية عند العرب هم شيعة ديموقريطس وأنا ذو قليس ،
وأن الطبيعيين هم بقية الأقدمين من الفلاسفة .

ومذهب ديموقريطس هو الغاية القصوى في فلسفة اليونان أواخر
العصر الأول .

أقبس منه الأشاعرة قولهم بالجزء الذي لا يتجزأ .

منه أخذ النظام من متكلمي المعتزلة قوله بالسكون . . .

ومنه أخذ جهم غفير من الملاحدة والطبيعيين قولهم في أنكار الباري
ووحده الوجود .

فن طابق قول ديموقريطس بما عليه الطبيعيون من الفلاسفة في عصرنا هذا لما
وجد بين القولين تفاوتاً اللهم إلا ما نشأ عن تقدم العلوم في زماننا .

والحق أن من اقتصر على الطبيعات ولم يقل بغير المحسوسات لا يسعه إلا
اقتفاء أثرهم والتحلي بشعائرهم . مع أن من تبصر في عواقب الأمور تحقق أن
مثل هذا الرأي لا يفضى في كل زمان إلا لأنكار الحقائق وهدم دعائم العقل .
« سنتلانا : المذاهب الفلسفية ، مخطوط مكتبة الجامعة » .

(١) إن الحقيقة التي لا جدال فيها هي : أن الأغلبية العظمى من الفلاسفة ،
ومن العلماء في جانب الإيمان .

والإلحاد في جو الفلاسفة ، وفي جو العلماء شذوذ .

وبما لا شك فيه أن عباقرة الفلسفة : القدماء منهم والمحدثين : مؤطون .

فسقراط ، وأفلاطون ، وأسطو ، وأقطين ، وديسكارت ، وكانت
من المؤطين .

وإذا كان الإلحاد الفلسفي شذوذاً ، فإن ذلك لا ينبغي أنه حقيقة موجودة ،
وأن له ممثلين باستمرار ، وهم - على حد تعبير الإمام الغزالي - « جهنموا الصانع
المدبر ، العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ،

بنفسه ، وبلا صانع ، ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، النطفة من الحيوان ،
= وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ،
وكذلك يكون أبداً .

وديموقريطس ، في العهد اليوناني ، هو الذي حاول بكل جهده أن يقيم من
الإلحاد مذهباً ؛ وكانت فكرته هي :

أن المادة قديمة ، وهي مركبة من أجزاء لا تتجزأ ، وهذه الأجزاء ،
أو الذرات دائمة التحرك في الفضاء اللانهائي ؛ ومن اجتماعها تتسكون الأجسام ،
وبافتراقها تنفنى وهكذا استمر الأمر من الأزل ، وسيبقى إلى الأبد بدون غاية
ولا هدف ، إنها الآلية البحتة .

وهذه الفكرة وإن كانت قديمة ، فإنها فكرة كل من يتخذ الإلحاد مذهباً
في العصور الحديثة ، وإن اختلفت كيفية التعبير عنها .

إنها فكرة الماديين المحدثين ، كما كانت فكرة الماديين القدماء ولم يغير من
جوهرها تحطيم الذرة أو تفتيتها ، اللهم إلا في كيفية التعبير عنها .

وقد رد القدماء ، في سهولة وفي قوة ، على هذا المذهب ، وكذلك فعل
المحدثون وكانت حججهم ، من الدقة ومن الإحكام ، بحيث تجعل المتأمل فيها
لا يتأتى أن يقول بغيرها .

وقد لخص حجج القدماء الأستاذ . سانتلانا ، في المخطوط المعنون بعنوان :

« المذاهب الإسلامية » . . . ونحن نورد تلخيصه الرائع فيما يلي :

« ١ » وأما القول بالطبيعة ، وأن لا شيء غيرها : فهو لا يرضى العاقل

المتبصر ؛ كأنه يقول :

نعم ، أنا لا أنزع في كون الطبيعة والحركة : من أصول الموجودات ، وإنما

توقف في كيفية صدور الفعل منها .

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا

العالم هذا النظام العجيب ، والترتيب الغريب ، الذي حارت فيه العقول ،

وقصرت عن إدراكه الفحول .

كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والصدفة ومجرد البخت ، ليت =

• • • • •
= شعري ، كيف اجتمعت تلك الأجزاء ، وكيف تألفت ، على اختلاف
أشكالها وتباين موادها وقواها ١١٤ ، وكيف بقيت على تألقها ١١٤ وكيف
تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ١١٤

وقد شهدت المعاينة : بأن حركات أجزاء لانهاية لها ولا محرك : لا تفضى إلا
إلى غاية الالتباس وعدم القياس !

هذا لعمرى ، كمثل من وضع حروف المعجم في ظرف ، أو صندوق ، ثم جعل
يحركها يوماً بعد يوم ، طمعا منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتربك منها
قصيدة بليغة ، أو رسالة عميقة في المنطق ، أو كتاب في الهندسة دقيق ! !
أليس ذلك من السفه البين ، فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل
من كده إلا على حروف ! !

فكيف يتصور حدوث هذا الموجود « العالم ، بما هو عليه : من الاتقان
والإحكام » وتضافر الأجزاء ، وبجيب مناسباتها بعضها لبعض : من حركات
اتفاقية في خلاه لانهاية له ١١٤

قال أرسطو في كتاب « سمع السكيان » :
« إن كل نظام يدل على وجود العقل » .

« ب » وفضلا عن هذا ، فإن ما يحصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة ، ولا يتكرر ،
ولا يسوغ بناء حكم عقلي عليه ، ولا يقبل القياس ، بخلاف ما شهدت به التجربة
في عالمنا من الثبوت . ولولا هذا لما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية .
« ح » هذا ، وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ، ولا شيء سواها ، فمن أين هذه
القوة العقلية التي يجدها كل واحد من نفسه ١١٤

وهي — مع ما فيها : من العجز ، والقصور ، وكثرة الخطأ — من أظهر
الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم .

ولا سبيل ، من المادة ، إلى الأفعال العقلية ، لما بينهما من المغايرة الأصلية .
فوجود هذه القوة : يستدعي وجود جوهر يجانسها ويمثلها ، ليسكون أصلا
لها ومركزاً .
=

كذلك كان ، وكذلك يكون أبدا . وهو لاء هم الزنادقة^(١) .

هل يحتمل : أن ما نشاهده : تصور المعقولات ، والكشف عن الكليات وتفريق القضايا ، وتركيب القياسات : ليس هو ، في نفس الأمر إلا اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر !!

هل يحتمل : أن ما تضمنته عقولنا : من الابحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة : كلنطق ، والرياضيات ، والالهيات ، وما فتنت به القلوب : من الشعر الرائق ، والمطرب من الاخوان ، وسحر البيان : أصله من تلك الأجزاء ١١٩ وكانبعث النار من اصطكاك الحجر بالحجر ، وذلك في خصوص النار ؛

لذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير .

(٥) إن المادة غير قادرة لأن تكون علة نفسها ، فن باب أخرى وأولى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأناً ، في درجة الوجود ؛ وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع ؛ وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفتنة السليمة . (١) ويقول سننلانا أيضاً : « من تبصر في عواقب الأمور تحقق أن مثل هذا الرأي لا يفضى في كل زمان إلا لا نكار الحقائق وهدم دعائم العقل . كيف لا ومن قال : إنه ليس في الوجود إلا المحسوس ولا شيء سواه كيف يمكن له أن يحكم بالوجود ؟

وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسي في شرح المحصل حيث قال نقلاً عن أرسطو وغيره :

الحس أدراك فقط .

والحكم تأليف بين مدركات بالحس أو بغير الحس .

وليس من شأن الحس التأليف الحكمي ، لأنه لإدراك فقط فلا شيء من الأحكام محسوسة أصلاً ، فإذا كل ما هو محسوس لا يمكن أن يوصف ، من حيث كونه محسوساً ، بكونه يقينياً أو غير يقيني ، أو حقاً أو باطلاً ، أو صواباً أو غلطاً ، فإن جميع هذه الأوصاف من لواحق الأحكام اه : وهو واضح لمن تحقق ماهية الحس وأنه مقصور بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه .

على أن المدرك والمدرك لازالاً يتغيران فكيف يحكم به على غيره ، وكيف تبني =

والصنف الثاني : الطبيعيون : وهم قوم أكثروا بحُثْمهم عن عالم الطبيعة ،
وعن عجائب الحيوان ، والنبات .

وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات .

فراوا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه
إلى الإعتراف بفاطر حكيم ، مَطَّلِع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع
التشريح ، وعجائب منافع الأعضاء مطالع ، إلا ويحصل له هذا العلم الضروري
بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الإنسان .

إلا أن هؤلاء — لكثرة بحُثْمهم عن الطبيعة — ظهر عندهم ، لاعتدال
المزاج ، تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به . فظنوا أن القوة العاقلة من
الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم . ثم إذا
انعدم ، فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا . فذهبوا إلى أن النفس تموت
ولا تعود ، فحسدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة ، والنار ، والحشر ، والنشر
والقيامة ، والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ؛
فأنحل عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام .

وهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله ، واليوم
الآخر . وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

الصنف الثالث : الإلهيون : وهم المتأخرون منهم مثل : «سقراط»^(١)

== عليه حكما عقليا ، وكيف نقف على حقيقته إذ كل ذلك موقوف على ما هو
غير الحس . فإني إذا تصورت مثلا أني قد سمعت الصوت فقد تجاوزت حد
الإدراك الحسي وأدخلت فيه حكما عقليا ليس له بالحس تعلق .

فشكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يسكون مثلها حينئذ إلا الشك
في الحقائق كما وقع في اليونان أثناء القرن الرابع قبل الميلاد .

(١) سقراط : من أشهر فلاسفة الاغريق ، ومؤسس فلسفة الأخلاق

وإلى مدارسه الأخلاقية التي شادها تلاميذه من بعده ترجع أكثر الفسك =

وهو أستاذ « أفلاطون » و « أفلاطون » ، أستاذ « أرسطاطاليس » .

== الأخلاقية التي عرفتها فلسفات العصور حتى عصرنا هذا .

عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، وجاهد في سبيل الحق حتى لقي مصرعه على أيدي حاسديه من أنصار الباطل ، فكان مصرعه مأساة دامية لا تزال حتى اليوم تثير أشجان أنصار الحق في كل زمان ومكان ، وتوحى إلى أنفسهم بأسمى مثل البطولة والشجاعة والثبات على الحق .

ومنهجه في البحث مشهور ، والحديث التالي يعطينا صورة منه . وقد جرى بينه وبين « أرسطو ديموس » الذي كان ينكر الإله ، ومنه نستبين أيضاً بعض أفكاره .

قال سقراط : « أفي الناس من يعجبك براعته في الصنائع ؟ فقال :

نعم ؛ وسمي من الشعراء والمصورين من كان بعده أبرع من غيره .

فقال سقراط : أيهما عندك أرفع شأنًا ؟ أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ؟ أما من يصور الأشباح الحية المتحركة ؟

فقال : من يصنع الصور الحية اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق ، لا من عمل العقل .

قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينه القصد والمنفعة فما قولك في تلك الأشياء ؟ ما هي التي عندك من فعل العقل وما هي التي عندك من فعل الاتفاق ؟

قال لا شك أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل .

قال سقراط : أو لست ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل له آلات الحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة ؟ : فأعطاه البصر ، والأذنين : ليحصر ويسمع ما يكون يعيشه صادقًا . وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الحياشم ؟ وكيف ندرك المطاعم ، ونفرق بين المر والحلو والمز ، لو لم يكن لنا لسان نذوق به ؟ إن بصرنا معرض للآفات ، أو لست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك ؟ فجعلت الأجنان كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر ، وجعلت الأهداب كالمناخل لتتقيها من أضرار الرياح . وما قولك في آلة السمع ، ==

و « أرسطاطاليس ، هو الذي رتب لهم المنطق . وهذب لهم العلوم ،
« وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم .
وهم بحملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ،
« وأوردوا في الكشف عن فضائهم ما اغنوا به غيرهم ، وكفى الله المؤمنين
القتال بتقاتلهم .

ثم رد « أرسطاطاليس ، على « أفلاطون ،^(١) و « سقراط ، ومن كان
قبله من الإلهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم إلا أنه استبقى أيضاً
من رذائل كفرهم ، وبدعتهم ، بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم
وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين « كابن سينا ، و « الفارابي » وأمثالهما .
على أنه لم يقم بنقل علم « أرسطاطاليس ،^(٢) أحد من متفلسفة

== وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتليء أبداً ؟ أما رأيت الحيوانات ، كيف
رتبت أسنانها المقدمة ، وأعدت لقطع الأشياء فتلقبها إلى الأرض فتدقها دقاً ...
فإذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكنك أن تشك . هل هي من فعل الاتفاق
أم من فعل العقل ؟

قال أرسطو ديموس : نعم إذا تفكرنا في ذلك لانك في أنها من فعل
صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته (من مخطوط مستلانا)

(١) فيلسوف يوناني ولد سنة ٤٢٩ ، وتوفي سنة ٣٤٧ ق م ، ويطلق عليه
« أفلاطون الإلهي » ، ذلك أن الروحانية تحتل من فلسفته المركز الرئيسي . ونظريته
في « المثل » ، وعلى رأسها « مثال الخير » مشهورة ، وقد ترجم من كتبه إلى العربية
حديثاً بعض المحاورات ، وكتاب « الجمهورية » ،

(٢) أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) ، هو أعظم فلاسفة اليونان الأقدمين ،
ويعدده بعض الناس أعظم شخصية فلسفية وجدت حتى الآن ، وهو مقنون الأصل
رحل إلى أثينا وتلمذ على « أفلاطون » ، ولزامته ؛ ويسمى أتباعه « بالمشائين » ،
ويلقب هو بـ « المعلم الأول » ، لأنه أول من رتب على المنطق نظامه ، وكونه علماً
له حدوده وأهدافه ، وقد طلب إليه « الملك فيليبس المقدوني » تعليم ابنه ==

الإسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تحييط وتحليط ، يشوش فيه قلب المطالع ، حتى لا يفهم : وما لا يفهم : كيف يرد أو يقبل ؟ . ومجموع ماصح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس ، بحسب نقل هذين الرجلين . ينحصر في ثلاثة أقسام :

- ١ - قسم يجب الكفير به .
- ٢ - وقسم يجب التبديع به .
- ٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلاً ، فلنفصله .

أقسام علومهم :

إعلم : أن علومهم بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه ستة أقسام : رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخلقية .

١ - أما الرياضية : فتتعلق بعلم الحساب ، والهندسة ، وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفيًا وإثباتًا ، بل هي أمور برهانية ، لا سبيل إلى مجادتها بعد فهمها ، ومعرفةتها . وقد تولدت منها آفتان :

الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها : فيسخرن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح ، وفي وثاقة البرهان ، كذا العلم . ثم يكون قد سمع من كفرهم ، وتعطيهم ، وتهاونهم بالشرع ، ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ، ويقول : لو كان الدين حقاً ، لما اختلف على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم ! فإذا عرف بالتسامح كفرهم وجحدهم ، فيستدل على أن الحق هو الجحد .

==الاسكندر، فأخذ يعمله ثلاث سنوات، وقد ترجم إلى العربية حديثاً من كتبه.
« كتاب الأخلاق » ، و « الكون والفساد » ، و « السياسة » ، ترجمها الأستاذ الكبير
« أحمد لطفى السيد » ، وترجم له الأستاذ « الاهوانى » ، كتاب « النفس » .

والإنكار للدين . وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند
الله سواه !

وإذا قيل له : الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً
في كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه ، والكلام ، حاذقاً
في الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل صناعة
أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق ، وإن كان الحق والجهل قد يلزمهم
في غيرها ، فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الإلهيات تخميني ،
لا يعرف ذلك إلا من جربه ، وخاص فيه . فهذا إذا قُترِرَ على هذا
الذي انتدع بالتقليد لم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ،
وشهوة البطالة ، وحب التكايس على أن يصر على تحسين الظن بهم
في العلوم كلها .

فهذه آفة عظيمة ، لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم ،
فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم ،
يسرى إليه شرهم وشؤمهم ، فقل من يخوض فيه ، إلا وينخلع من الدين ،
وينحل عن رأسه لجام التقوى .

الآفة الثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ظن أن الدين ينبغي
أن يُنصَرَ بإنكار كل علم منسوب إليهم : فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم
فيها ، حتى أنكر قولهم في الكسوف ، والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على
خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عَرَفَ ذلك بالبرهان القاطع ،
لم يشك في برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل ، وإنكار البرهان
القاطع ، فازداد للفلسفة حياً ، وللإسلام بغضاً .

وأنقد عظمت على الدين جنافية من ظن أن الإسلام يُنصَرَ بإنكار هذه
العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي ، والإثبات ، ولا في هذه

العلوم تعرض الأمور الدينية . وقوله عليه السلام :
إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ
أَحَدٍ ، وَلَا لِحَيَاتِهِ ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزِعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ،
وإلى الصلاة . .

ليس في هذا إنكار علم الحساب ، المعروف بمسير الشمس ، والقمر ،
واجتماعهما ، أو مقابلتهما ، على وجه مخصوص .
أما قوله عليه السلام : لكن الله إذا تجلى لشيء خضع له ، فليس توجد
هذه الزيادة في الصحاح أصلاً .
فهذا حكم الرياضيات ، وآفتها .

٢ - وأما المنطقيات : فلا يتعلق شيء منها بالدين ، نفيًا ، وإثباتًا ،
بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس ، وشروط مقدمات البرهان ،
وكيفية تركيبها .

وشروط الحد الصحيح ، وكيفية ترتيبه .
وأن العلم إما تصور ، وسبيل معرفته ، الحد ، وإما تصديق ، وسبيل
معرفته ، البرهان .

وليس في هذا ما ينبغي أن ينسكرك ، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون .
وأهل النظر في الأدلة . وإنما يفارقونهم بالعبارات ، والاصطلاحات ،
وبزيادة الاستقصاء في التعريفات ، والتشعيبات .

ومثال كلامهم فيها قولهم : إذا ثبت أن كل (أ) (ب) ، لزم أن بعض
(ب) (أ) : أي : إذا ثبت أن كل إنسان حيوان ، لزم أن بعض الحيوان
إنسان ، ويعبرون عن هذا بأن المرجحة الكلوية ، تتعكس موجبة جزئية .
وأي تعلق لهذا بمهمات الدين ، حتى يجحد وينسكرك ؟ فإذا أنكرك ، لم يحصل

من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد في عقل المنكر ، بل في دينه
الذي يزعم أنه موقوف على هذا الإنكار .

نعم لم نوع من الظلم في هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً
يُطلبُ منها تورث اليقين ، لاحتمال ، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ،
ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل .

وربما يُنظرُ في المنطق أيضاً ، من يستحسنه ، ويراه واضحاً : فيظن
أن ما ينقل عنهم من الكفریات مؤيدة بمثل تلك البراهين ، فاستعمل
بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية .

فهذه الآفة أيضاً متطرفة إليه .

٣ - وأما علم الطبيعيات : فهو بحث عن عالم السموات ، وكواكبها ،
وما تحتها من الأجسام المفردة كالماء ، والهواء ، والتراب ، والنار ، ومن
الأجسام المركبة : كالحيوان ، والنبات ، والمعادن ، وعن أسباب تغيرها ،
واستحالتها ، وامتزاجها ، وذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الإنسان ،
وأعضائه الرئيسية والخاصة ، وأسباب استحالة مزاجه . وكإليس من شرط
الدين إنكار علم الطب ، فإليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم ، إلا في مسائل
معينة ، ذكرناها في كتاب « تهافت الفلاسفة » وما عداها بما يجب المخالفة
فيها ، فعند التأمل ، يتبين أنها مندرجة تحتها .

وأصل جملتها أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ،
بل هي مستعملة من جهة فاطرها . والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والطبائع
مستخرات بأمره ، لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته .

٤ - وأما الإلهيات : ففيها أكثر أغاليطهم ، فما قدرُوا على الوفاء

بالبراهين على ماشرطوه في المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها .
ولقد قرب مذهب « أرسطاطاليس » ، فيها من مذاهب الإسلاميين ، على
ما نقله الفارابي^(١) ، وابن سينا^(٢) .

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين ، أصلاً يجب تكفيرهم
في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر .

ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب « التهافت » ،
أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم :

(١) « الفارابي » : (٢٦٠ - ٣٣٩ هـ) ولد في « فاراب » . وهو لإقليم فارسي
في تخوم بلاد « الترك » ، رحل إلى « بغداد » ، ثم استقر به المقام في كنف
« سيف الدولة » ، يعيش عيشة الزهد . موجهها كل همه إلى الدراسة والتأمل .
يقول « ابن خلسكان » : وكان مدة مقامه بـ « دمشق » لا يكون - غالباً -
إلا عند مجتمع ماء ، أو مشقبة رياض ، وبؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه
المشتغلون عليه .

وكان « الفارابي » يحسن « الموسيقى » ، تلحيناً وتوقيعاً ، حتى ليحكى
« ابن خلسكان » : أن « الآلة الموسيقية » . « القانون » ، إنما هي من وضعه ؛
وقد أطلق عليه المسلمون : « المعلم الثاني » . كما أطلق على « أرسطو » :
« المعلم الأول » .

وتقدير المؤرخين له متفاوت : فمنهم من يقدمه على « ابن سينا » ، ومنهم
يقدم « ابن سينا » عليه .

(٢) « ابن سينا » : (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) كان فيلسوفاً عظيماً من فلاسفة
الإسلام ، كما كان له في الطب قدم راسخة وفهم دقيق ، وقد ألف فيه كتاب
« القانون » ، الذي كان يدرس في معاهد « أوروبا » عدة قرون . أما كتبه الفلسفية
فكثيرة ومتداولة ، ومن أشهرها كتاب « الإشارات » ، وكتاب « الشفاء » ،
وكتاب « النجاة » .

١ - أن الأجساد لا تحشر^(١)، وإنما المثاب، والمعاقب هي الأرواح

(١) لعل من الإنصاف، الذي يدعو إليه دائماً الإمام الغزالي، أن نذكر رأى ابن رشد في المسائل الثلاث التي كفر بها الإمام الغزالي الفلاسفة. نذكر رأى ابن رشد، مختصراً، عن كتابي «فصل المقال»، و«الكشف عن مناهج الأدلة»، يقول ابن رشد: والمعاد ما اتفقت على وجوده الشرائع، وقامت عليه البراهين عند العلماء، وإنما اختلفت الشرائع في صفة وجوده، ولم تختلف في الحقيقة في وجوده، وإنما اختلفت في الشهادات التي مثلت بها للجمهور تلك الحال الغائبة: وذلك أن من الشرائع من جعله روحانياً أعنى للنفوس؛ ومنها من جعله للأجسام والنفوس معاً. والاتفاق في هذه المسألة مبني على اتفاق الوحي في ذلك، واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع في ذلك، أعنى: أنه قد اتفق الكل على أن الإنسان سعادتين: أخراوية وديناوية وأنبي ذلك عند الجميع على أصول يعترف بها عند الكل (ثم أخذ ابن رشد في بيان هذه الأصول، من العقل، والنقل) ثم قال: فالشرائع كلها كما قلنا متفقة على أن للنفس من بعد الموت أحوالاً، من السعادة، أو الشقاء. في تمثيل هذه الأحوال، وتفهم وجودها للناس. ويشبه أن يكون التمثيل الذي في شريعتنا هذه أتم إفهاماً لأكثر الناس، وأكثر تحريكاً لنفوسهم إلى ما هنالك، والأكثرون هم المقصود الأول بالشرائع.

وأما التمثيل الروحاني فيشبهه أن يكون أقل تحريكاً لنفوس الجمهور إلى ما هنالك والجمهور أقل رغبة فيه. وخوفاً له منهم في التمثيل الجسماني. ولذلك يشبه أن يكون التمثيل الجسماني أشد تحريكاً إلى ما هنالك من الروحاني، والروحاني أشد قبولاً عند المتكلمين المجادلين من الناس وهم الأقل.

ولهذا المعنى، نجد أهل الإسلام—في فهم التمثيل الذي جاء في ملتنا في أحوال المعاد— ثلاث فرق؛ فرقة رأت أن ذلك الوجود هو بعينه هذا الوجود الذي ههنا من النعيم واللذة، أعنى أنهم رأوا أنه واحد بالجنس، وأنه إنما يختلف الوجودان بالدوام والانتقطاع، أعنى أن ذلك دائم، وهذا منقطع. =

المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .
ولقد صدقوا في إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا
في إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به .

== وطائفة رأت أن الوجود متباين ، وهذه انقسمت قسمين : طائفة رأت
أن الوجود الممثل لهذه المحسوسات هو روحاني ، وأنه إنما مثل به إرادة البيان ،
ولهؤلاء حجج كثيرة من الشريعة مشهورة ، فلا معنى لتعديدها .
وطائفة رأت أنه جسماني لكن اعتقدت أن تلك الجسمانية — الموجودة
هنا لك — مخالفة لهذه الجسمانية ، لتكون هذه بالية ، وتلك باقية ، ولهذا أيضاً
حجج من الشرع . ويشبه أن ابن عباس يكون ممن يرى هذا الرأي ؛ لأنه روى
عنه أنه قال : ليس في الدنيا من الآخرة إلا أسماء . ويشبه أن يكون هذا الرأي
هو أليق بالخواص ، وذلك أن إمكان هذا الرأي ينبئ على أمور ليس فيها
منازعة عند الجميع : أحدها : أن النفس باقية ، والثاني : أنه ليس يلحق
عن عودة النفس إلى أجسام آخر المحال الذي يلحق عن عودة تلك الأجسام
بهيئها : وذلك أنه يظهر أن مواد الأجسام التي هيئها توجد متعاقبة ، ومنمتلة
من جسم إلى جسم ، وأعني : أن المادة الواحدة بهيئها توجد لأشخاص كثيرة ،
في أوقات مختلفة ، وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن توجد كلها بالفعل ،
لأن مادتها هي واحدة . مثال ذلك أن إنساناً مات ، واستحال جسمه
إلى التراب ، واستحال ذلك التراب إلى نبات ، فاغتذى إنسان آخر من ذلك
النبات ، فكان منه متى حين تولد منه إنسان آخر .

وأما إذا فرضت أجسام آخر ، فليس تلحق هذه الحال .

والحق في هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها هو ما أدى إليه نظره فيها ،
بعد أن يكون نظراً لا يفضي إلى إبطال الأصل جملة ، وهو إنكار الوجود جملة ،
فإن هذا النحو من الاعتقاد ، يوجب تكفير صاحبه ، لتكون العلم بوجود هذه
الحال للإنسان معلوماً للناس ، بالشرائع ، والعقول .

٢ — ومن ذلك قولهم : « إن الله تعالى يعلم السكليات دون الجزئيات ^(١) .

وهذا أيضا كفر صريح ، بل الحق أنه : « لا يعزبُ عن علمه متقال ذرة في السموات ، ولا في الأرض ، .

٣ — ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته ^(٢) ، فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل .

(١) يذكر ابن رشد عن الإمام الغزالي قوله : أن الفلاسفة يرون أنه سبحانه لا يعلم الجزئيات ثم يقول : « وليس الأمر كما توهم عليهم ، بل يرون (الفلاسفة) أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذي من شرطه الحدوث بحدوثها ، إذ كان (علم الله) علة لها ، لا معلولا عنها كالحال في العلم المحدث .

وهذا هو غاية التنزيه الذي يجب أن يعترف به ، فإنه قد اضطر البرهان إلى أنه عالم بالأشياء ، لأن صدورها عنه إنما هو من جهة أنه عالم ، لا من جهة أنه موجود فقط ، أو موجود بصفة كذا ، بل من جهة أنه عالم ، كما قال تعالى : « ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير » . وقد اضطر البرهان إلى أنه غير عالم بها بعلم هو على صفة العلم المحدث ، فواجب أن يكون هنالك للوجودات علم آخر ، لا يكيف ، وهو علم القديم سبحانه . وكيف يمكن أن يتصور أن المشائين من الحكماء ، يرون أن العلم القديم لا يحيط بالجزئيات ، وهم يرون أنه سبب الإنذارات في المنامات ، والوحى ، وغير ذلك من أقواع الإلهامات ، .

(٢) يقول ابن رشد: وأما مسألة قدم العالم ، أو حدوثه ، فإن الاختلاف فيها عندي بين المتسكلمين من الأشعرية ، وبين الحكماء المتقدمين ، يكاد يكون راجعاً للاختلاف في التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء . وذلك أنهم اتفقوا على أن ههنا ثلاثة أصناف من الموجودات : طرفان ، وواسطة بين الطرفين ، فاتفقوا في تسمية الطرفين ، واختلفوا في الواسطة .

فأما الطرف الواحد ، فهو موجود وجد من شيء غيره ، وعن شيء : أعني عن سبب فاعل ، ومن مادة ، والزمان متقدم عليه — أعني على وجوده — =

وأما ما وراء ذلك من تفهيم الصفات ، وقولهم إنه علم بالذات ، لا يعلم

== وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكوينها بالحس ، مثل تكون : الماء ، والهواء ، والأرض ، والحيوان ، والنبات . وغير ذلك . فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء ، والأشعريين ، على تسميتها محدثة .
وأما الطرف المقابل لهذا : فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا عن شيء ، ولا تقدمه زمان ، وهذا أيضاً اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديماً . وهذا الموجود مدرك بالبرهان ، وهو الله تبارك وتعالى ، الذي هو فاعل السكل ، وموجود ، والحافظ له ، سبحانه وتعالى قدره .

وأما الصنف من الموجود ، الذي بين هذين الطرفين . فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا تقدمه زمان . ولكنه موجود عن شيء . - أعنى عن فاعل - وهذا هو العالم بأسره . والسكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ؛ فإن المتكلمين يسلون أن الزمان غير متقدم عليه ، أو يلزمهم ذلك ؛ إذ الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام ، وهم أيضاً متفقون مع القدماء ، على أن الزمان المستقبل غير متناه ، وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون في الزمان الماضي ، والوجود الماضي . فالمتكلمون يرون أنه متناه . وهذا هو مذهب « أفلاطون » وشيعته . و « أرسطو » وفرقته يرون أنه غير متناه ، كالحال في المستقبل . فهذا الموجود الآخر ، الأمر فيه بين أنه قد أخذ شهياً من الوجود السكائن المحدث ، ومن الوجود القديم ، فن غلب عليه ما فيه من شبه القديم ، على ما فيه من شبه المحدث ، سماه قديماً ، ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث ، سماه محدثاً . وهو في الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ، ولا قديماً حقيقياً ؛ فإن المحدث الحقيقي فاسد ضرورة ، والقديم الحقيقي ليس له علة .

ومنهم من سماه محدثاً أزلياً ، وهو « أفلاطون » وشيعته ، اسكون الزمان متناهما عندهم من الماضي . فالمذاهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر ؛ فإن الآراء التي شأنها هذا ، يجب أن تكون في الغاية من التباعد ، أعنى ==

زائد على الذات ، وما يجرى مجراه ، فذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

== أن تكون متقابلة ، كاطن المتكلمون في هذه المسألة ، أعني أن اسم القدم والحدوث في العالم بأسره هو من المتقابلة ، وقد تبين من قولنا أن الأمر ليس كذلك .

وهذا كله ، مع أن هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع ، فإن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة ، ففي الأنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة ، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين — أعني غير منقطع — وذلك أن قوله تعالى : « وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء » يقتضى بظاهره ، أن وجوداً قبل هذا الوجود — وهو العرش والماء — وزماناً قبل هذا الزمان : أعني المقترن بصورة هذا الوجود ، الذي هو عدد حركات الفلك . وقوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض ، والسموات » يقتضى بظاهره أن وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود . وقوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان » يقتضى بظاهره أن السماوات والأرض خلقت من شيء .

والمتكلمون ليسوا في قولهم أيضاً في العالم على ظاهر الشرع . بل متأولون ، فإنه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا فيه نصاً أبداً ، فكيف يتصور في تأويل المتكلمين في هذه الآيات أن الإجماع انعقد عليه ؟ والظاهر الذي قلناه عن الشرع في وجود العالم ، قد قال به فرقة من الحكماء ، ويشبهه أن يكون المختلفون في هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين ، وإما مخطئين معذورين : فإن التصديق بالشيء قبل الدليل القائم في النفس ، هو شيء اضطرارى ، لا اختياري : أعني أنه ليس لنا أن نصدق ، أو لا نصدق ، كما لنا أن نقوم ، أو لا نقوم . وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له إذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه السلام : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران ، وإن أخطأ ، فله أجر » .

وأى حاكم أعظم من الذي يحكم على الوجود بأنه كذا ، أو ليس بكذا ؟! وهؤلاء الحكماء هم العلماء ، الذين خصهم الله بالتأويل .

وقد ذكرنا في كتاب « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ، ما يتبين فيه فساد رأى من يتسارع إلى التكفير في كل يخالف مذهبه .

٥ - وأما السياسات : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية ، المتعلقة بالأمور الدنيوية ، والإيالة السلطانية . وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء .

٦ - وأما الخلقية : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها ، وأنواعها ، وكيفية معالجتها ، ومجاهدتها .

وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتأهلون ، المتأبرون على ذكر الله تعالى ، وعلى مخالفة الطوى ، وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا . وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها ، وآفات أعمالها ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ، ومزجوها بكلامهم ، توسلا بالتجمل بها إلى ترويح باطلهم .

ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر ، جماعة من المتأهلين ، لا يُخشي الله سبحانه العالم عنهم ، فإنهم أوقاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض ، كما ورد في الخبر حيث قال عليه السلام : « بهم تُمطرون ، وبهم تُرزقون . ومنهم كان أصحاب الكهف » .

وكانوا في سالف الأزمنة على ما نطق به القرآن .

فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية ، بكتبتهم آفتان :

١ - آفة في حق القابل .

٢ - آفة في حق الراد .

١ - أما الآفة التي في حق الراد فعظيمة ؛ إذا ظنت طائفة من الضعفاء

أن ذلك الكلام إذا كان مدوناً في كتبهم ، ومزجوا بباطلهم ينبغى أن يهجر

ولا يذكر ، بل ينكر على كل من يذكره ، إذ لم يسمعه أو لا إلا منهم ، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل ، لأن قائله مبطل ، كالذى يسمع من النصراني قول : « لا إله إلا الله عيسى رسول الله » فينكره ويقول : « هذا كلام النصراني » ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر ، باعتبار هذا القول ، أو باعتبار إنكاره نبوة — محمد عليه السلام — ؟ فإن لم يكن كافر إلا باعتبار إنكاره ، فلا ينبغي أن يُخالَفَ في غير ما هو به كافر ، مما هو حق في نفسه . وإن كان أيضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول : يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق .

والعاقل يقتدى بقول أمير المؤمنين « علي بن أبي طالب » رضى الله عنه حيث قال : « لا تعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق ، تعرف أهله » والعاقل يعرف الحق ، ثم ينظر في نفس القول . فإن كان حقاً قبله ، سواء كان قائلاً مبطلاً ، أو محقاً . بل ربما يحرص على انزع الحق من أقاويل أهل الضلال ، عالماً بأن معدن الذهب الرغام^(١) . ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلاب ، وانزع الإبريق الخالص من الزيف والبهرج مهما كان واثقاً ببصيرته . وإنما يزجر عن معاملة القلاب القروى ، دون الصير في البصير . ويتمتع من ساحل البحر الأخرق ، دون السباح الحاذق . ويصد عن مس الحية الصبي ، دون المعزوم البارح .

ولعمري ، لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الخداعة والبراعة ، وكال العقول في تمييز الحق عن الباطل ، والهدى عن الضلالة ، وجب حسم الباب في زجر الكفاة عن مطالعة كتب أهل الضلالة ما أمكن ، إذ لا يسلمون عن الآفة الثانية التي سنذكرها ، وإن سلموا عن الآفة التي ذكرناها .

ولقد اعترض على بعض الكلمات المبهوثة في تصانيفنا ، في أسرار علوم

(١) الرغام : التراب .

الدين ، طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم ، ولم تتفتح إلى أقصى
غايات المذاهب بصائرهم .

وزعمت : أن تلك الكلمات من كلام «الأوائل»^(١) ، مع أن بعضها
من مؤلّفات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر .

وبعضها يوجد في السكتب الشرعية .

وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية .

وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولا
في نفسه ، مؤيدا بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة السكتاب والسنة فليُمنح
أن يهجر ، أو ينسكرك ؟

فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر
مبطل ، لزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات
القرآن ، وأخبار الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء ، والصوفية ؛
لأن صاحب كتاب «إخوان الصفا» أوردها في كتابه ، مستشهداً بها
ومستدرجاً قلوب الحق بواسطة باطلة ، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج
المبطلون الحق من أيدينا ، بإيداعهم إياه في كتبهم .

وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامى الغمر^(٢) ، فلا يعاف العسل ،
وإن وجدته في مخجمة الحجام ، ويتحقق أن المخجمة لا تغير ذات العسل ؛
فإن نُسفرة الطبع منه ، مبنية على جهل عامى ، منشؤه أن المخجمة إنما صنعت
للدّم المستقدر : فيظن أن الدّم مستقدر لكونه في المخجمة ، ولا يدرى أنه
مستقدر لصفة في ذاته ، فإذا عدمت هذه الصفة في العسل ، فكونه في ظرفه ،
لا يُكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغى أن يوجب له الاستقدار . وهذا وهم

(١) يقصد به «الأوائل» : الفلاسفة القدماء .

(٢) رجل غمر : لم يجرب الأمور .

باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق . فهما نسبت الكلام ، وأسندته إلى قائل
حَسُنَ فيه اعتقادهم ، قبلوه ، وإن كان باطلا . وإن أسندته إلى من ساء فيه
اعتقادهم ، ردّوه ، وإن كان حقاً . فأبدأ يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون
الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال ١١

هذه آفة الرد .

٢ - آفة القبول : فإن من نظر في كتبهم ، كماخوان الصفا ، وغيره ،
فرأى ما مزجوه بكلامهم ، من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، ربما
استحسنها ، وقبلها ، وحسن اعتقاده فيها ، فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج
به ، لحسن ظن حصل فيما رآه ، واستحسنه .

وذلك نوع استدراج إلى الباطل .

ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم ؛ لما فيها
من الغدر ، والخطر .

وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزلق الشطوط ، يجب صون
الخلق عن مطالعة تلك الكتب .

وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات ، يجب صون الاسماع
مُخْتَلِطِ تلك الكلمات .

وكما يجب على المعزوم ألا يمس الحية بين يدي ولده الطفل ، إذا علم أنه
سيقتدى به ، ويظن أنه مثله ، بل يجب عليه أن يحذّره بأن يحذر هو نفسه ،
ولا يمسها بين يديه ، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله .

وكما أن المعزوم الحاذق إذا أخذ الحية ، وميز بين الترياق والسم ،
فاستخرج منه الترياق وأبطل السم ، فليس له أن يشح بالترياق على
المحتاج إليه .

وكذلك الصراف الناقد البصير ، إذ أدخل يده في كيس القلاب ،

وأخرج منه الابريز الخالص ، واطَّرح الزيفَ والبهرج ، فليس له
أن يشح بالجيد المرضى على من يحتاج إليه : كذلك العالم .
وكما أن المحتاج الى الترياق ، اذا اشتأزت نفسه منه ، حيث علم أنه
مستخرج من الحية ، التي هي مركز السم : وجب تعريفه .
والفقير المضطر الى المال ، اذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من
كيس القلاب : وجب تنبيهه على أن نُسْفَرَتَه جهل محض ، هو سبب حرمانه عن
الفائدة التي هي مطلبه ، وتَحْتَمُّ تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيد
لا يجعل الجيد زيفاً ، كما لا يجعل الزيف جيداً ، فكذلك قرب الجوار
بين الحق والباطل لا يجعل الحق باطلاً ، كما لا يجعل الباطل حقاً .
فهذا مقدار ما أردنا ذكره من آفة الفلاسفة وغائلتها .

٣ - مذهب التعليم وغائلته

ثم إنى لما فرغت من علم الفلسفة ، وتحصيله ، وتفهمه ، وتزييف ما يريف
هنه ، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلا
بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات .

وكانت قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحديثهم بمعرفة معنى
الأمور ، من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق ، عنّ لى أن أبحث عن
مقالاتهم : لأطلع على ما فى كتبهم .

ثم اتفق أن ورد على أمر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف كتاب ،
يكشف عن حقيقة مذهبهم . فلم يسعنى مدافعته وصار ذلك مستحجاً من
خارج ، ضميمة للباعث الأسمى من الباطن .

فابتدأت بطلب كتبهم ، وجمع مقالاتهم . وكان قد بلغنى بعض كتاباتهم
المستحدثة ، التى ولدتها خواطر أهل العصر ، لا على المنهج المعهود من سلفهم .
فجمعت تلك الكلمات ، ورتبتها ترتيباً محكماً ، مقارناً للتحقيق ، واستوفيت
الجواب عنها ، حتى أنكر بعض أهل الحق مبالغى فى تقرير حجيتهم ، وقال :
« هذا سعى لهم ، إنهم كانوا يعجزون عن نصره مذهبهم لمثل هذه الشبهات ،
لولا تحقيقك لها ، وترتيبك إياها ، وهذا الإنكار ، من وجه حق ، فلقد
أنسكرك أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى ^(١) - رحمهما الله - تصنيفه
فى الرد على المعتزلة . فقال الحارث :

« الرد على البدعة فرض » .

(١) يقول عنه القشبرى : « عديم النظر فى زمانه : عليا ، وروعا ومعاملة
وحالا ؛ بصرى الأصل ، مات بـ « بغداد » سنة ثلاث وأربعين ومائتين ، قال
« أبو عبد الله بن خفيف ، اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلبوا لهم حالهم : =

فقال أحمد :

نعم ، ولكن حكييت شبهتهم أولا . ثم أجبت عنها ، فبم تأمن أن يطالع
الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب
ولا يفهم كنهه ؟ .

وما ذكره أحمد حق ، ولكن في شبهه لم تنتشر ولم تشتهر ، فأما إذا
انتشرت ، فالجواب عنها واجب . ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحساية .
نعم ، ينبغي ألا يتسككسّف لهم شبهة ، ولم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد
سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إلى ، بعد أن كان قد التحق
بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المستنفين ، في الرد
عليهم ؛ فإنهم لم يفهموا بعد حجتهم . وذكر تلك الحجة ، وحكاها عنهم ،
فلم أرض لنفسي أن يظن بي الغفلة عن أصل حجتهم ؛ فلذلك أوردتها ،
ولا أن يظن بي أني ، وإن سمعتها ، فلم أفهما ، فلذلك قررتها .

والمقصود : أني قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان ، ثم أظهرت فسادها
بغاية البرهان .

== الخارث بن أسد المحاسبي ، و الجنيد بن محمد ، و أبو محمد رويم ، و أبو
انعباس بن عطاء ، و عمر بن عثمان المكي ، لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق .
وما يروى عنه : قوله : من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص . زين الله ظاهره
بالمجاهدة واتباع السنة .

وقد ألف كتبا كثيرة ، يوجد بعضها مخطوطات في دار المكتبة المصرية
وفي مكتبة الجامعة .

وأنفس ما نعرف من كتبه : كتاب الرعاية لحقوق الله ، وقد طبعته
د الأنسة مرجريت سميث ، وقد طبع له كتاب « التوهم » بالقاهرة .

والحاصل : أنه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم .
ولو لا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة - مع ضعفها -
إلى هذه الدرجة .

ولكن شدة التعصب ، دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم ،
في مقدمات كلامهم ، وإلى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به . فجاحدوهم في دعواهم :
« الحاجة إلى التعليم ، والمعلم ، ودعواهم أنه : « لا يصالح كل معلم ، بل لا بد
من معلم معصوم » . وظهرت حججهم في إظهار الحاجة إلى التعليم ، والمعلم .
وضعف قول المنكرين في مقابلته : فاغتر بذلك جماعة ، وظنوا أن ذلك
من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ولم يفهموا أن ذلك اضعف
ناصر الحق ، وجهله بطريقه ، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم ،
وأنه لا بد وأن يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد
عليه السلام .

فإذا قالوا : « هو ميت » .

فنعقول : « فعليكم غائب » .

فإذا قالوا : معلمنا قد علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، وهو ينتظر
مراجعتهم إن اختلفوا ، أو أشكل عليهم مُشكِل .

فنعقول : « ومعلمنا قد علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، وأكمل التعليم ؛
إذ قال الله تعالى . « اليوم أكملت لكم دينكم » ، وأتممت عليكم نعمتي ،
وبعد كمال التعليم ، لا يضر موت المعلم ، كما لا تضر غيبته .

فبقي قولهم : « كيف تحكمون فيما لم تسمعوه ؟ ، أبالنص ، ولم تسمعوه
أم بالاجتهاد والرأى ، وهو مظنة الخلاف ، ؟

فنعقول : نفعل ما فعله مُعَاذ ؛ إذ بعثه رسول الله - عليه السلام -

إلى اليمن (١) : أن نحكم بالنص ، عند وجود النص ، وبالاجتهاد ، عند عدمه ، بل كما يفعله دعايتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقصى البلاد ؛ إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص ؛ فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع في كل واقعة إلى بلدة الإمام ، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع ، فيسكون المستفتى قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع .
فن أشكلت عليه القبلة ، ليس له طريق إلا أن يصلى بالاجتهاد ، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، لفات وقت الصلاة . فإذا ، جازت الصلاة إلى غير القبلة بناءً على الظن . ويقال : « إن الخطيئة في الاجتهاد له أجر واحد ، وللصيب أجران ، فكذلك في جميع المجتهدات .
وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير ، وربما يظنه فقيراً باجتهاده ، وهو غني باطناً ، ياخفاء ماله ، ولا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ ؛ لأنه لم يؤاخذ إلا بموجب ظنه .

فإن قال : « ظن مخالفه كظنه » .

فنقول : « هو مأمور باتباع ظن نفسه ، كالمجتهد في القبلة ، يتبع ظن نفسه ، وإن خالفه غيره » .

(١) حينما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن يبعث « معاذاً ، قاضياً

ب « اليمن » ، قال له :

بم تقضى يا معاذ .

فقال : بما في كتاب الله .

قال : فإن لم تجد .

قال : بما في سنة رسول الله .

قال : فإن لم تجد .

قال : اجتهد رأيي .

فقال رسول الله : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحب رسول الله .

وإن قال : فالملقة يتبع أبا حنيفة ، والشافعي - رحمهما الله -
أم غيرهما؟ .

فأقول : « فالملقة في القبلة عند الاشتباه ، إذا اختلف عليه المجتهدون ،
كيف يصنع؟ » .

فسيقول : « له مع نفسه اجتهاد . في معرفة الأفضل الأعم بدلائل القبلة ،
فيتبع ذلك الاجتهاد ، فكذلك في المذاهب » .

فرد الخلق إلى الاجتهاد - ضرورة - الانبياء والأئمة مع العلم
أنهم قد يخطئون . بل قال رسول الله عليه السلام : « أنا أحكم بالظاهر ،
والله يتولى السرائر » . أي : أنا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ،
وربما أخطأوا فيه . ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء في مثل هذه
المجتهدات : فكيف نطمع في ذلك ؟
ولهم ها هنا سؤالان :

أحدهما : قولهم : هذا وإن صح في المجتهدات ، فلا يصح في قواعد
العقائد ؛ إذ المخطيء غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟

فأقول : قواعد العقائد ، يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء ذلك
من التفصيل ، والمنتزاع فيه : يُعرفُ الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم .
وهي الموازين التي ذكرها الله تعالى في كتابه ، وهي خمسة ، ذكرتها في كتاب
« القسطاس المستقيم » .

فإن قال : خصومك يخالفونك في ذلك الميزان ،

فأقول : لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه أهل التعليم ،
لأنى استخرجته من القرآن وتعلمته منه .

ولا يخالف فيه أهل المنطق ؛ لأنه موافق لما شرطوه في المنطق ، غير

مخالف له .

ولا يخالف فيه المتكلم : لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات ،
وبه يعرف الحق في الكلاميات .
فإن قال : فإن كان في يدك مثل هذا الميزان ، فلم لا ترفع الخلاف
بين الخلق ؟

فأقول : لو أصغوا إليّ ، لرفعت الخلاف بينهم .

وذكرت طريق رفع الخلاف في كتاب « القسطاس المستقيم » فتأمله ؛
لتعلم أنه حق ، وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا ، ولا يصغون بأجمعهم !!
بل قد أصغى إليّ طائفة ، فرفعت الخلاف بينهم ، وإمامك يريد رفع
الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم . فلم لم يرفع إلى الآن ؟

ولم لم يرفع « على » - « رضى الله عنه » - ، وهو رأس الأئمة ؟
أو يدعى أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلم لم يحملهم إلى الآن .
ولأى يوم أجله ؟ وهل حصل بين الخلق بسبب دعوته إلا زيادة
خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! ! كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر
لا ينتهى إلى سفك الدماء ، وتخريب البلاد ، وأيتام الأولاد ، وقطع الطرق ،
والإغارة على الأموال . وقد حدث في العالم من بركات رفعكم الخلاف ،
من الخلاف ما لم يكن بمثله عهد .

فإن قال : ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ، ولكن المتحير
بين المذاهب المتعارضة ، والاختلافات المتقابلة ، لم يلزمه الإصغاء إليك
دون خصمك وأكثر الخصوم يخالفونك ، ولا فرق بينك وبينهم :
وهذا هو سؤالهم الثانى .

فأقول هذا أولاً ينقلب عليك ، فإنك إذا دعوت هذا المتحير
إلى نفسك ، فيقول المتحير ، بم صرت أولى من مخالفيك ، وأكثر أهل العلم
يخالفونك ؟ فليت شعرى ! بماذا تجيب ؟ أتجيب بأن تقول : إمامى منصوص

عليه ، فمن يصدقك في دعوى النص ، وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وإنما يسمع دعواك ، مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك .

ثم هب أنه سلم لك النص ، فإن كان متحيراً في أصل النبوة ، فقال : هب أن إمامك يدلي بمعجزة عيسى فيقول : الدليل على صدقي ، أني أحيي أباك ، فأحيياه ، فناطقني بأنه محق ، فماذا أعلم صدقه ؟ ولم يعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشككة ما لا يدفع إلا بدقيق النظر العقلي ، والنظر العقلي لا يوثق به عندك ، ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف السحر ، والتميز بينه وبين المعجزة ، وما لم يعرف أن الله لا يضل عباده — وسؤال الإضلال وعسر تحرير الجواب عنه مشهور — فماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكن إمامك أولى بالمتابعة من مخالفة فيرجع إلى الأدلة النظرية التي ينسكرها ، وخصمه يدلي بمثل تلك الأدلة ، وأوضح منها ، وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً ، ولو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جواباً ، لم يقدروا عليه .

وإنما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة ، ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب ، بل بالجواب . وذلك بما يطول فيه الكلام ، ولا يسبق سريعا إلى الأفهام ، فلا يصلح للإفهام .

فإن قال قائل : فهذا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟

فأقول : نعم ، جوابه أن المتحير لو قال : أنا متحير ، ولم يعين المسألة التي هو متحير فيها ، يقال له : أنت كمرريض يقول : أنا مريض . ولا يذكر عين مرضه ، ويطلب علاجه . فيقال له : ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين : من صداع ، أو إسهال ، أو غيرهما . فكذلك المتحير ينبغي أن يعين ما هو متحير فيه . فإن عين المسألة عرفته الحق فيها ، بالوزن بالموازن الخمسة ، التي لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق ،

الذي يوثق بكل ما يوزن به ، فيفهم الميزان ، ويفهم أيضاً من صحة الوزن ، كما يفهم متعلم الحساب نفس الحساب وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب ، وصادقاً فيه .

وقد أوضحت ذلك في كتاب « القسطاس المستقيم » ، في مقدار عشرين ورقة ، فليأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم ؛ فقد ذكرت ذلك في كتاب « المستظري ، أولاً .

وفي كتاب « حجة الحق » ، ثانياً ، وهو جواب كلام لهم عرض عليّ « ببغداد » .

وفي كتاب « مفصل الخلاف » ، الذي هو اثنا عشر فصلاً ثالثاً ، وهو جواب كلام عرض عليّ « بهمدان » .

وفي كتاب « الدرج ، المرقوم » بالجداول ، رابعاً ، وهو من ركيك كلامهم ، الذي عرض عليّ « بطوس » .

وفي كتاب « القسطاس المستقيم » ، خامساً ، وهو كتاب مستقل بنفسه ، مقصوده : بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم ، لمن أحاط به .

بل المقصود أن هؤلاء ، ليس معهم شيء من الشفاء ، المنجى من ظلمات الآراء ، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام ، طالما جاريناهم فصدقناهم في الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم ، وأنه الذي عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم ، وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها ، فضلاً عن القيام بحلها ؛ فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب ، وقالوا : إنه لا بد من السفر إليه .

والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم ، وفي التبجح بالظفر به ،

ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً ، كالمتمضخ بالنجاسة ، يتعب في طلب الماء حتى إذا وجدته لم يستعمله ، وبقى متمضخاً بالخبثات .

ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم ، فسكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة « فيثاغورس » . وهو رجل من قدماء الأوائل ، ومذهبه أركّ مذاهب « الفلاسفة » ، وقد رد عليه « أرسطاطاليس » ، بل استركّ كلامه ، واسترّ ذله ، وهو المحكي في كتاب « إخوان الصفا » ، وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب طول العمر ، في طلب العلم ، ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم .

فهؤلاء أيضاً جربناهم ، وسبرنا ظاهريهم ، وباطنيهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام ، وضعفاء العقول ، ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلتهم في إنكارهم الحاجة إلى التعليم ، بكلام قوى ، مقحم ، حتى إذا ساعدتهم على الحاجة إلى المعلم مساعد ، وقال : هات علمه ، وأفدنا من تعليمه : وقف وقال : الآن إذا سلمت لي هذا فاطلبه ؛ فإتما غرضي هذا القدر فقط ، إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ، ولعجز عن حل أدنى الإشكالات ، بل يعجز عن فهمه ، فضلاً عن جوابه .

فهذه حقيقة حالهم ، فاخبرهم تَعْلَمُهُمْ (١) فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم .

(١) تبعضهم .

٤ - طرق الصوفية

ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما تم بعلم وعمل . وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ؛ حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتخليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل « قوت القلوب » ، « لأبى طالب المسكى » ، - رحمه الله - وكتب « الحارث المحاسبى » ، والمتفرقات الماثورة عن « الجنيد » (١) ،

(١) سيد هذه الطائفة وإمامهم . أصله من نهاوند ، ومنشؤه ومولده بالعراق وأبوه كان يبيع الزجاج : فلذلك يقال له القواريرى . وكان فقيها على مذهب أبى ثور وكان يفتى فى حلقاته بحضرة وهو ابن عشرين سنة مات سنة سبعة وتسعين ومائتين ٢٩٧ .

قال « الروذبارى » : سمعت « الجنيد » يقول : لرجل ذكر المعرفة وقال : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله - عز وجل - ، فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمة . والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله - تعالى - وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم انقص من أعمال البر ذرة ، إلا أن يحال بى دونها .
وقال « الجنيد » : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتنى أثر الرسول - عليه الصلاة والسلام -

وقال : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتهدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ « عن الرسالة القشيرية » .

و « الشبلي » (١) ، و « أبي يزيد البسطامي » (٢) قدّس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ؛ حتى اطلعت على كنهه مقاصدهم العلمية ، وحصّلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع . فظهر لي أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق ، والحال وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يُسَلَّم حدُّ الصحة ، وحدُّ الشبوح . وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعاناً ؛ وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه : عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفسفر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حدّ السكر . وعليه وهو سكران ، وما معه من علمه شيء . والصاحي يعرف حد السكر ،

(١) بغدادى المولد والمنشأ ، وأصله من « أسروشنة » . صحب « الجنيد » ومن في عصره ، وكان شيخ وقته جالا ، وظرفا ، وعلميا ؛ مالكي المذهب ، عاش سبعا وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وقبره بـ « بغداد » . وكان « الشبلي » ، إذا دخل رمضان جدد فوق جدد من عاصره ويقول : هذا شهر عظمه ربى ، فأنا أول من يعظمه .

(٢) كان من كبار الزاهدين العابدين : قيل : إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين وقيل أربع وثلاثين ومائتين .

وذهب مرة لزيارة رجل كان مقصودا مشهورا بالزهد ، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ — فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه .

ومن كلامه : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى في الهواء فلا تغفروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة « انظر الرسالة القشيرية » .

وأركانها ، وما معه من السكر شيء . والطبيب في حالة المرض ، يعرف حد الصحة ، وأسبابها ، وأدويتها وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

فعلت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال . وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم ، فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

وكان قد حصل معي — من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية ، والعقلية — إيمانٌ يقيني بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر .

فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب ، وقرائن ، وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفصيلها .

وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله ، قطعُ علاقة القلب عن الدنيا : بالتجافي عن دار الغرور ، والإجابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنهه الهمة على الله تعالى . وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه ، والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت أحوالي : فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أهدت بي من الجوانب .

ولاحظت أعمالي — وأحسنها التدريس والتعليم — فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس ؛ فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب

الجاه ، وانتشار الصيد : فتيقنت أنى على شقاً جُرُفِ هارٍ ، وأنى قد أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال .

فلم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً . وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى . لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة ، بـكسرةٍ إلا وتحمل عليها جند الشهوة حملة ، فتفتريها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبُنى سلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل ، رياء وتخييل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة ، فتى تستعد ؟ . وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فتى تقطع ؟ . فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ؛ فإنها سريعة الزوال . فإن أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمن المسلم الصافي عن المنازعة الخصوم ، وربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعى الآخرة ، قريباً من ستة أشهر أو لها : رجب ، ستة ثمان وثمانين وأربعمائة (١) . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الإضرار : إذ أقفل الله على لسانى ، حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً ، تطييباً لقلوب المختلفة إلى ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ، ولا يستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان ، حزناً فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم وسماءة الطعام والشرب ، فكان لا ينساخ لى ثريد ،

(١) فى نسخة أخرى : ست وثمانين وأربعمائة .

ولا تنهضم لى لقمة . وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا :

هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالسكينة اختياري ، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر ، الذى لاحيلة له . فأجابنى الذى يُجيبُ المُسْتَظَرَّ إذا دَعاه . وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه ، والمال ، والأولاد ، والأصحاب .

وأظهرت عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أدبّر فى نفسى سفر الشام ، حذراً أن يطّلع الخليفة ، وجملة الأصحاب ، على عزمى ، فى المُسْتَقام بالشام . فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد ، على عزم ألا أعاودها أبداً . واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ؛ إذ لم يكن فيهم من يُجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ؛ إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان ، لاستشعار من جهة الولاية ، وأما من قرّب من الولاية ، وكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب على ، وإعراضى عنهم ، وعن الالتفات إلى قوطم ، فيقولون : هذا أمر سماوى ، وليس له سبب ، إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمّرة العلم .

ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معى من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مُرْتَصِدٌ للصالح ؛ لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم أر فى العالم مالا يأخذه العالم لعياله ، أصلح منه .

ثم دخلت الشام ، وأقت به قريباً من سنتين ، لا شغل لي إلا العزلة ،
والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة : اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب
الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلت من علم الصوفية ،
فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ،
وأغلق بابها على نفسي .

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق
بابها على نفسي .

ثم تحركت في داعية فريضة الحج ، واستمداد من بركات مكة ،
والمدينة ، وزيارة رسول الله ﷺ ، بعد الفراغ من زيارة الخليل ، صلوات
الله عليه . فسرت إلى الحجاز .

ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأبطال إلى الوطن ، فعاودته ، بعد أن
كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه .

فآثرت العزلة به أيضاً ، حرصاً على الخلوة ، وتصفيه القلب للذكر .
وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، تغير
في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو لي الحال إلا في
أوقات متفرقة . لسكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ،
وأعود إليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين .

وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن
إحصاؤها ، واستقصاؤها .

والقدر الذي أذكره لينتفع به : أني علمت يقيناً أن الصوفية هم
السالكون لطريق الله تعالى خاصة . وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم
أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء .

وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، لِيُعَيَّرُوا شيئاً من سيرهم ، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة ، فإذا يقول القائلون في طريقة ، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى .

ومفتاحها - الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة - استغراق القلب بالكلية بذكر الله .

وآخرها الفناء بالكلية في الله ؟

وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والسكسب من أوائلها . وهي على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهايز للسالك إليه . ومن أول الطريقة تبتدى * المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقبسون منهم فوائد .

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة : ينتهى الأمر إلى قرب ، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول .

وطائفة الاتحاد .

وطائفة الوصول .

وكل ذلك خطأ .

وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب «المقصد الأسنى» . بل الذى لا يستتم تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان ، مما لست أذكره فظن خيراً ، ولا تسأل عن الخبر

وبالمجمله : فن لم يرزق منه شيئاً بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم . وكرامات الأولياء - على التحقيق - هي بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله - عليه السلام - حيث تبتل ، حين أقبل إلى جبل « حراء » ، حين كان يخلو فيه بربه ، ويتعبد ، حتى قالت العرب : « إن محمداً عشق ربه » .

وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها .

فن لم يرزق الذوق : فيتيقنها بالتجربة والتسامح إن أكثرَ معهم الصحبة ، حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً . ومن جالسهم ، استفاد منهم هذا الإيمان . فهم القوم ، لا يشقى جليسهم .

ومن لم يرزق صحبتهم ، فليعلم إمكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه في كتاب « عجائب القلب » من كتب أحياء علوم الدين .

والتحقيق بالبرهان علم .

وملابسة عين تلك الحالة ذوق .

والقبول من التسامح ، والتجربة ، بحسن الظن ، لإيمان .

فهذه ثلاث درجات : « يرفعُ الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » .

وراء هؤلاء قوم جهال : هم المنكرون لأصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام ، يستمعون ، ويسخرون . ويقولون : العجب إنهم كيف يهذون ! وفيهم قال الله تعالى : « ومنهم من يستمعُ إليك ، حتى إذا خروا من عندك أقالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين كُطِبَ الله على قلوبهم ، واتسبوا أهواءهم » ، « .. » « فأصمَّهم ، وأعمى أبصارهم » .

ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم : حقيقة النبوة ، وخاصيتها . ولا بد من التنبيه على أصلها ، لشدة مسيس الحاجة إليها .

حقيقة النبوة

واضطراب كافة الخلق إليها

اعلم : أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة ، خلق خالياً ، ساذجاً ، لا خبر معه من عوالم الله تعالى . والعوالم كثيرة ، لا يحصيها إلا الله تعالى ، كما قال : وما يعلم جنود ربك إلا هو .

وإنما خبره في العالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك من الإدراكات خلق ليضطلع الإنسان به على عالم من الموجودات . ونعني بالعوالم ، أجناس الموجودات فأول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، واللين ، والخشونة ، وغيرها . واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً ؛ بل هي كالمعدوم في حق اللمس .

ثم تخلق له حاسة البصر ، فيدرك بها الألوان ، والأشكال وهو أوسع عوالم المحسوسات .

ثم ينفخ فيه السمع ، فيسمع الأصوات ، والنغمات .
ثم يخلق له الذوق .

وكذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات : فيخلق فيه التمييز ، وهو قريب من سبع سنين . وهو طور آخر من أطوار وجوده . فيدرك فيه أموراً زائدة على المحسوسات لا يوجد منها شيء في عالم الحس .

ثم يترقى إلى طور آخر ، فيخلق له العقل : فيدرك الواجبات ، والجائزات ؛ والمستحيلات ، وأموراً لا توجد في الأطوار التي قبله .

(ووراء العقل طور آخر ، تنفتح فيه عين أخرى ، يبصر بها الغيب ، وما سيكون في المستقبل ، وأموراً أخرى ، العقل معزول عنها ، كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز) .

(وكما أن ألمعيز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها ، واستبعدها ،
فمكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة ، واستبعدوها . وذلك عين الجهل :
إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ، ولم يوجد في حقه ، فيظن أنه غير
موجود في نفسه . والأكف لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان ، والأشكال ،
وحكى له ذلك ابتداء ، لم يفهمها ، ولم يقرّ بها) .

(وقد قرّب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاهم أمموجاً من خاصية
النبوة ، وهو النوم ؛ إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما
في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه
— وقيل له : ان من الناس من يسقط مغشياً عليه ، كالميت ، ويزول عنه
إحساسه ، وسمعته ، وبصره ، فيدرك الغيب — لأنكره ، وأقام البرهان
على استحالتة ، وقال : القوى الحساسة أسباب الإدراك فن لا يدرك
الأشياء مع وجودها وحضورها . فبأن لا يدركها مع ركودها ،
أولى ، وأحق .

وهذا نوع قياس يكذب الوجود ، والمشاهدة . فكما أن العقل طور
من أطوار الأدمى يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات ، والحواس
معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً : عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور ، يظهر
في نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل) .

والشك في النبوة إما أن يقع :
في إمكانها .

أو في وجودها ، ووقوعها .

أو في حصولها لشخص معين .

ودليل إمكانها ، وجودها .

ودليل وجودها : وجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل :

كعلم الطب ، والنجوم ، فإن من بحث عنها ، علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهي ؛ وتوفيق من جهة الله تعالى . ولا سبيل إليها بالتجربة . فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا في كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ، وكذلك خواص الأدوية .

فتبين بهذا البرهان ، أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور ، التي لا يدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة ، لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل لإحدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها . وما ذكرنا فقطرة من بحرها . إنما ذكرناها لأن معك أمودجا منها : وهو مدركاتك في النوم . ومعك علوم من جنسها ، في الطب ، والنجوم ، وهي معجزات الأنبياء ، ولا سبيل إليها للعقل بعبادة العقل أصلاً .

وأما ما عدا هذا من خواص النبوة ، إنما يدرك بالذوق ، من سلوك طريق التصوف ؛ لأن هذا إنما فهمته بأنمودج رزقته ، وهو النوم ، ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبي خاصة^١ ليس لك منها أنمودج ، ولا تفهمها أصلاً : فكيف تصدق بها ؟ وإنما التصديق بعد الفهم .

وذلك الأنمودج يحصل في أوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه . فهذه الخاصية الواحدة ، تكفيك للإيمان بأصل النبوة .

فإن وقع لك الشك في شخص معين : أنه نبي أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله : إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامع . فإنك إذا عرفت الطب ، والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء ، والأطباء ، بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم ، وأن لم تشاهدهم . ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون الشافعي ، - رحمه الله - فقيماً ، وكون «جالينوس» طبيباً ، معرفة بالحقيقة

لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب ، وتطالع كتبهما ،
وتصانيفهما : فيحصل لك علم ضرورى بحالهما .

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرت النظر فى القرآن ، والأخبار
يحصل لك العلم الضرورى بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة . وأعضد ذلك
بتجربة ماقاله فى العبادات ، تأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله :
« من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وكيف صدق فى قوله : « من أعان ظالماً ، سلطه الله عليه » .

وكيف صدق فى قوله : « من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى^(١))
كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة^(٢) » .

فإذا جربت ذلك فى ألف ، وألفين ، وآلاف ، حصل لك علم ضرورى
لا تتبارى فيه .

فمن هذا الطريق ، أطلب اليقين بالنبوة ، لا من قلب العصا ثعباناً ، وشق
القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة
الخارجة عن الحصر ، ربما ظننت أنه سحر ، وتخمين ، وأنه من الله إضلال
فإنه « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

وترد عليك أسئلة المعجزات : فإن كان مُسْتَنِدًا إيمانك إلى كلام منظوم
فى وجه دلالة المعجزة ، فَيَتَجَزَمُ إيمانك بكلام مرتب فى وجه الإشكال
والشبهة عليها .

(١) ما بين القوسين زيادة عن الجامع الصغير وضعناها لبيان المعنى .

(٢) وفى سنن ابن ماجه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ومن جعل
الهموم هما واحداً ، هم المعاد ، كفاه الله هم دنياه . ومن تشعبت به الهموم فى
أحوال الدنيا ، لم يبال الله فى أى أوديته هلك » .

فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضروري ، لا يمكنك ذكر مستنده على التعمين ، كالذي يخبره جماعة بخبر متواتر ، لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين بل من حيث لا يدري ، ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا بتعمين الآحاد . فهنا هو الإيمان القوي العلي .

وأما الذوق فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية .

فهذا القدر من حقيقة النبوة كافٍ في الغرض ، الذي أقصده الآن ، وسأذكر وجه الحاجة إليه .

سلب نشر العلم

بعد الإعراض عنه

ثم إنى لما واطبت على العزلة والخلوة ، قريباً من عشر سنين ، وبان لى فى أثناء ذلك على الضرورة ، من أسباب لا أحصياها : مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهانى ، ومرة بالقبول الإيمانى : أن الإنسان خلق من بدن وقلب ، وأعنى بالقلب حقيقة روحه ، التى هى محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذى يشارك فيه الميت والبهيمة ، وأن البدن له صحة بها سعادته ، ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك ، له صحة وسلامة ، ولا ينجو « الا من أتى الله بقلب سليم » ، وله مرض فيه هلاكه الأبدى الآخرى ، كما قال تعالى « فى قلوبهم سرور » ، وأن الجهل بالله سُم مُهلك ، وأن معصية الله ، بمتابعة الهوى داؤه الممرض ، وأن معرفة الله تعالى تزيّنه المحيى ، وطاعته بمخالفة الهوى ، دواؤه الشافى ، وأنه لا سبيل إلى معالجتة بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية : كما لا سبيل إلى معالجة البدن ، إلا بذلك . وكما أن أدوية البدن تؤثر فى كسب الصحة ، بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء ، الذين أخذوها من الأنبياء الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بان لى — على الضرورة — أن أدوية العبادات — محدودها ، ومقاديرها المحدودة ، المقدره من جهة الأنبياء — لا يبدرك وجهه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص ، بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل .

وكما أن الأدوية تتركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار ، وبعضها ضعف البعض فى الوزن والمقدار ، فلا يخلوا اختلاف مقاديرها عن سر ، هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التى هى أدوية داء القلوب ، مركبة

من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ، ولا يخلو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يُطْلَعُ عليها إلا بنور النبوة .

ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط — بطريق العقل — لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لا عن سر إلهي فيها ، يقتضيها بطريق الخاصية .

وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها ، وزوائد هي متماتها ، لسكل واحد منها خصوص نائير في أعمال أصولها ، كذلك النوافذ والسنن ، متمات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : فالأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أنْ عَرَفْنَا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا ، وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . وإلى ها هنا مجرى العقل ، ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه .
فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، في مدة الخلوة والعزلة .

ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة .

ثم في حقيقة النبوة .

ثم في العمل بما شرحتة النبوة .

وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ؛ فنظرت إلى أسباب فتور الخلق ،

وضعف إيمانهم ، فإذا هي أربعة :

١ - سبب من الخائضين في علم الفلاسفة .

٢ - وسبب من الخائضين في طريق التصوف .

٣ — وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم .

٤ — وسبب من معاملة المرسومين بالعلم فيما بين الناس .

فإني تبعت مدةً آحاد الخلق ، أسأل من يقصّر منهم في متابعة الشرع ، وأساله عن شبهته ، وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له مالك تقصّر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ، ولست تستعد لها ، وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟ وإن كنت لا تؤمن ، فأنت كافر افدبر نفسك في طلب الإيمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفي ، الذي هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به ، تجملاً بالإيمان ، وتشرفاً بذكر الشرع ! .

فقائل يقول : « هذا أمر ، لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشاهير ، بين الفضلاء ، لا يصلح ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف ، وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إردار السلطان ولا يجترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ، وهم جرا ، إلى أمثاله . . . »

وقائل ثان يدعى علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة .

وقال ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة !

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول « الحق مشكل ، والطريق إليه متعسر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي أهل الرأي ، والداعي إلى التعليم متحكم لا حجة له ، فكيف أدع اليقين بالشك ؟ » .

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ، ولست أقرأت علم الفلسفة ،

وأرکت حقيقة النبوة : وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة . وأن المقصود من تعبداتها : ضبط عوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل ، والتنازع ، والاسترسال ، في الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال ، حتى أدخل في حيز التكليف ، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير بها ، مستغن فيها عن التقليد ، هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فاسفة الأهلين منهم ، وتعلم ذلك من كتب « ابن سينا » و « أبي نصر الفارابي » .
وهؤلاء هم المتجملون بالإسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن . ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكن مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وأنواع من الفسق والفجور .

وإذا قيل له : « إن كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلي ؟ » فربما يقول : « لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد » . وربما قال : « الشريعة صحيحة ، والنبوة حق » . فيقال : فلم تشرب الخمر ؟ فيقول : « إنما نهى عن الخمر ؛ لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحكمتي محتز عن ذلك ، وإن أقصد به تشجيع خاطري ، حتى أن « ابن سينا » في وصية له كتب فيها : أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ، ولا يقتص في العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً ، بل تدواياً وتشافياً ، فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان ، والتزام العبادات ، أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافي .

فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم ضعف اعتراض المعترضين عليهم ؛ إذ اعترضوا بمجادة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك ، مما هو ضروري لهم ، على ما بينا علته من قبل . فلما رأيت أصناف الخلق ، من ضعف إيمانهم إلى هذا الحد ، بهذه

الأسباب ، ورأيت نفسي مُلمبة^(١) بكشف هذه الشبهة ، حتى كان إفصاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي في علومهم ، وطرقهم . أعنى طرق « الصوفية » ، و « الفلاسفة » ، و « التعليمية » ، والمتوسمين من العلماء ، انقذح في نفسي أن ذلك متعين ، في هذا الوقت ، محتوم .

فما تغنيك الخلوّة والعزلة ، وقد عمّ الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟

ثم قلت في نفسي متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ؟ ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق ، عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنّى تقاومهم ، فكيف تعايشهم ، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ؟ .

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، تعللاً بالعجز عن اظهار الحق بالحجة ، فقدّر الله تعالى أن حرّك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحرّيك من خارج ، فأمر أمر إلزام بالتهوؤض إلى « نيسابور » لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حداً كان ينتهي - لو أصررت على الخلاف - إلى حد الوحشة .

فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعذك . على ملازمة العزلة الكسلى والاستراحة ، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ولم تُسرّخص نفسك بعسر معافاة الخلق ، والله تعالى يقول : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ أَحْسِبْ النَّاسَ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ، وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ؟ » ولقد فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، الآية .

ويقول عز وجل ، لرسوله وهو أعز خلقه : ولقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ

(١) ألب بالمكان . أقام به ولزمه .

قَسْبِكَ، فَصَبِّرُوا، عَلَى مَا كَذَبُوا، وَأَوْذُوا، حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا نُمِيتُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَقَدْ سَجَأكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ .

ويقول عز وجل : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، إِلَى قَوْلِهِ « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ،

فشاررت في ذلك جماعة من أرباب القلوب ، والمشاهدات ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية .

وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة ، متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة (١) . وقد وعد الله سبحانه بأحياء دينه على رأس كل مائة ، فاستحکم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى الحركة إلى « نيسابور » للقيام بهذا المهم في ذى العقدة سنة تسع وتسعين وأربعمئة . وكان الخروج من « بغداد » في ذى القعدة ، سنة ثمان وثمانين وأربعمئة ، وبلغت مدة العزلة إحدى عشر سنة .

وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهى من عجائب تقديرته التى لم يكن لها انقذاح فى القلب فى هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من « بغداد » والنزوع عن تلك الأحوال ، مما خطر إمكانه أصلاً بالبال ، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال ، و « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » .

وأنا أعلم أنى وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ! فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت فى ذلك الزمان ، أنشر العلم الذى به يكسب الجاه ، وأدعوا إليه بقولى وعملى ، وكان ذلك قصدى ، ونيتى . وأما الآن فأدعو

(١) روى أبو داود ، والحاكم ، والبيهقى : « ان الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » .

إلى العلم الذى به يترك الجاه . ويعرف به سقوط رتبة الجاه . هذا هو الآن
نيتى وقصدى ، وأمنيته ، يعلم الله ذلك منى .

وأنا أبغى أن أصلح نفسى ، وغيرى ، ولست أدرى أصل إلى مرادى
أم المخترم دون غرضى ؟ ولستكنى أو من إيمان يقين ومشاهده - أنه لا حول
ولا قوة ، إلا بالله العلى العظيم ، وأنى لم أنحرك لسكنه حركتى ، وأنى لم
أعمل ، لسكنه إستعملى ، فأسأله أن يصلحنى أولا ، ثم يصلح بى ، ويهدى بى ،
ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقا ، ويرزقنى اتباعه ، ويرينى الباطل باطلا ،
ويرزقنى اجتنابه .

• • •

ونعود الآن إلى ما ذكرناه من أسباب ضعف الإيمان فيمن ذكر بذكر
طريق إرشادهم ، وإنقاذهم من مهالكهم .

أما الذين ادعوا الخيرة بما سمعوه من أهل التعليم فعلاجه ما ذكرناه في
كتاب « القسطاس المستقيم » ، ولا نطول بذكره في هذه الرسالة .

وأما ما توهمه أهل الإباحتة ، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع ،
وكشفناها في كتاب « كيمياء السعادة » .

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة ، حتى أنكر أصل النبوة ، فقد ذكرنا
حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود علم خواص الأدوية
والنجوم ، وغيرهما ، وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك . وإنما أوردنا
الدليل من خواص الطب والنجوم ؛ لأنه من نفس علمهم ، ونحن نبين لكل
عالم بن من العلوم ، كالنجوم ، والطب ، والطبيعة ، والسحر ، والطلسمات
مثلا ، من نفس علمه برهان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ، وسوى أوضاع الشرع على الحكمة ، فهو
على التحقيق كافر بالنبوة ، وإنما هو مؤمن بحكيم ، له طالع مخصوص ،

يقتضى طالعه أن يكون متبوعا .

وليس هذا من النبوة في شيء .

بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن إدراك الألوان ، والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات . فإن لم يجوز هذا ، فقد أثبت أن ها هنا أمورا تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حر اليها أصلا ، بل يكاد العقل يكذبها ، ويقضى باستحالتها . فإن وزن دافق (١) من الأفيون ، سم قاتل ؛ لأنه يجمد الدم في العروق ، لفرط برودته ، والذي يدعى علم الطبيعة ، يزعم أن ما يبرد من المركبات ، إنما يبرد بعنصرى الماء والتراب ، فهما العنصران الباردان . ومعلوم أن أرطالا من الماء والتراب ، لا يبلغ تبريدهما في الباطن إلى هذا الحد . فلو أخبر طبيعى بهذا ، ولم يجربه ، لقال : « هذا محال ، والدليل على استحالتها أن فيه نارية ، وهوائية ، والهوائية والنارية لا تزيد بها برودة ، فنقدر السكل ماء وتراباً ، فلا يوجد هذا الإفراط بالتبريد فإن انضم إليه حاران فبأن لا يوجب أولى . » ويقدر هذا برهاناً ١

وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات ، مبنى على هذا الجنس ؛ فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألفوه قدروا استحالتها .

ولو لم تسكن الرؤيا الصادقة مألوفة ، وادّعى مدع ، أنه عند ركود الحواس ، يعلم الغيب ، لأنكره المتصفون بمثل هذه العقول .
ولو قيل لواحد . « هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء هو بمقدار حبة ،

(١) الدافق بفتح النون وكسرهما : سدس الدرهم .

يوضع في بلدة ، لياً كل تلك البلدة بجملتها ، ثم يأكل نفسه فلا يُبقي شيئاً من البلدة وما فيها ، ولا يُبقي هو في نفسه ؟ ، لقال هذا محال ، وهو من جملة الخرافات ! وهذه حالة النار ، ينسكرها من لم ير النار ، إذا سمعها .
وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل .

فنقول للطبيعي : قد اضطررت إلى أن تقول : في الأفيون خاصية في التبريد ، ليس على قياس المعقول بالطبيعة . فلم لا يجوز أن يكون في الأوضاع الشرعية من الخواص ، في مداواة القلوب ، وتصفيتها ، ما لا يدرك بالحكمة العقلية ، بل لا يُبصر ذلك إلا بعين النبوة ؟ بل قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا ، فيما أوردوه في كتبهم ، وهي من الخواص العجيبة ، المجربة في معالجة الحامل ، التي عسر عليها الطلاق ، بهذا الشكل :

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

يكتب على خرقتين ، لم يصبهما ماء ، وتنظر إليهما الحامل بعينها . وتضعهما تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال إلى الخروج . وقد أقروا بإمكان ذلك ، وأوردوه في كتاب «عجائب الخواص» ، وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوم مخصوصة . يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر ، قرأته في طول الشكل ، أو في عرضه ، أو على التآريب .

فياليت شعري ! من يصدق بذلك ، ثم لا يتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث ، هي الخواص غير معلومة بنظر الحكمة ؟ وسببها اختلاف هذه الأوقات ، وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة .

والعجب أن لو غيرنا العبارة إلى عبارة المنجمين ، لعقلوا اختلاف هذه الأوقات ، فنقول ، أليس يختلف الحكم في الطالع ، بأن تكون الشمس في وسط السماء ، أو في الطالع ، أو في الغارب حتى يَبْسُتُوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج ، وتفاوت الأعمار ، والآجال ، ولا فرق بين الزوال ، وبين كون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب . فهل لتصديقه سبيل ؟ إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم ، جرب كذبه مائة مرة . ولا يزال يعاود تصديقه ، حتى لو قال المنجم له : « إذا كانت الشمس في وسط السماء ، ونظر إليها الكوكب الفلاني ، والطارح هو البرج الفلاني فلبست ثوباً جديداً في ذلك الوقت تستأنت في ذلك الثوب ، فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت وربما يقامى فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم ، وقد عرف كذبه مرات ؟

فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ، ويضطر إلى الاعتراف بأنها خوص - معرفتها معجزة بعض الأنبياء - كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبي صادق ، مؤيد بالمعجزات ، لم يعرف قط بالكذب ؟ فإن أنكر فلسفي إمكان هذه الخواص في أعداد الركعات ورمى الحمار ، وعدد أركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلاً .

فإن قال : قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فانقذ في نفسى تصديقه ، وسقط من قلبي استبعاده ، ونفرتي ، وهذا لم أجربه ، فبم أعلم وجوده وتحقيقه ؟ وإن أقررت بإمكانه .

فأقول : إنك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت أخبار المجريين وقلدتهم ، فاسمع أقوال الأنبياء ، فقد جربوا ، وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم ، تدرك بالمشاهدة بعض ذلك .

على أنى أقول : « وإن لم تجرب به فيقصى عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً ، فإننا لو فرضنا رجلاً بلغ ، وعقل ، ولم يجرب المرض ففرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل . فعجن له والده دواء ، فقال : « هذا يصلح لمرضك ، ويشفيك من سقمك ، . فماذا يقتضيه عقله ، وإن كان الدواء مرّاً كريه المذاق ؟ أيتناول ؟ أو يكذب ويقول : « أنا لا أعقل مناسبة هذا الدواء ، لتحصيل الشفاء ، ولم أجر به ؟ ، فلا شك أنك تستحقه إن فعل ذلك ! وكذلك يستحقك أهل البصائر في توفيقك !

فإن قلت : « فبم أعرف شفقة النبي عليه والسلام ، ومعرفته بهذا الطب ؟ ، فأقول :

« وبم عرفت شفقة أبيك ، وليس ذلك أمراً محسوساً ؟ بل عرفتها بقرائن أحواله ، وشواهد أعماله في مصادره ، وموارده ، عليها ضرورياً لا يتبارى فيه ، .

ومن نظر في أقوال رسول الله عليه السلام ، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق ، وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق ، واللتطف ، إلى تحسين الأخلاق ، وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى ما لا يصلح إلا به دينهم ، وديارهم ، حصل له علم ضرورى ، بأن شفقتهم على أمته ، أعظم من شفقة الوالد على ولده .

وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال ، وإلى عجائب الغيب ، الذى أخبر عنه في القرآن على لسانه ، وفي الأخبار ، وإلى ما ذكره في آخر الزمان ، فظهر ذلك كما ذكره : علم - عليها ضرورياً - أنه بلغ الطور الذى وراء العقل ، وانفتحت له العين التى ينكشف منها الغيب ، الذى لا يدركه إلا الخواص ، والأمور التى لا يدركها العقل .

فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري ، بتصديق النبي - عليه الصلاة والسلام - فحرب ، وتأمل القرآن ، وطالع الأخبار ، تعرف ذلك بالعيان . وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان .

وأما السبب الرابع - وهو ضعف الإيمان بسبب سوء سيرة العلماء - فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور : -

أحدها : أن تقول : إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام ، معرفته بتحريم ذلك الحرام ، كعرفتك بتحريم الخمر ، ولحم الخنزير ، والربا ، بل بتحريم الغيبة ، والسكذب ، والنميمة . وأنت تعرف ذلك وتفعله ، لا لعدم إيمانك بأنه معصية ، بل لشهواتك الغالبة عليك ؛ فشهوته كشهوته ، وقد غلبته كغلبتك ، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحذور المعين . وكم من مؤمن بالطب ، لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وإن زجره الطبيب عنه ، ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، أو على أن الإيمان بالطب غير صحيح ، فهذا مَحْمَلُ هفوات العلماء .

الثاني أن يقال للعالمى : ينبغي أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيهِ ، ويكون له شافعياً ، حتى يتساهل معه في أعماله ، لفضيلة علمه ، وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له ، وهو ممكن ، فهو ، وإن ترك العمل ، يُدلى بالعلم . أما أنت أيها العالمى ، إذا نظرت إليه ، وتركت العمل ، وأنت عن العلم عاطل ، فهلك بسوء عمالك . ولا شفيع لك ! .

الثالث : وهو الحقيقة ، أن العالم الحقيقي ، لا يقارف معصية إلا على سبيل الطهارة ، ولا يكون مصراً على المعاصى أصلاً : إذ العلم الحقيقي

ما يعرف أن المعصية سم مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا ، ومن عرف ذلك ، لا يبيع الخير بما هو أدنى .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس ؛ فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى .

وأما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية ، وخوفا ، ورجاء ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات ، وذلك لا يدل على ضعف الإيمان . فالمؤمن مفتح تواب . وهو بعيد عن الإصرار ، والإكباب .

* * *

هذا ما أردت أن أذكره في ذم الفلسفة ، والتعليم ، وآفاتها ، وآفات من أنكر عليهما ، لا بطريقه .

ونسأل الله العظيم ، أن يجعلنا من آثره واجتباها ، وأرشدنا إلى الحق وهداه ، وألهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لا يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه .

خاتمة^(١)

الطريق

— ١ —

من الطبيعي ، أن ينشأ في الأقاليم التي لم يوجد فيها كتاب مقدس ، أو التي اندثرت فيها رسالته الرسل — رجال يحاولون ابتداع مذهب في ما وراء الطبيعة .

من الطبيعي ، أن يسكون الأمر كذلك ، في هذه الأقاليم ، ذلك أن الإنسان ، بطبيعته طلعه ، وهو يحاول معرفة العلة والأسباب ؛ ويتشوف إلى رؤية المجهول ، ويتطلع إلى الكشف عن عالم الغيب .

أما في البيئات التي فيها نص مقدس ، يحتفظ بنصرته ، ولا يشك إنسان في صحته ؛ فإنه من غير الطبيعي أن ينشأ ، بجوار هذا النص المعصوم ، اختراعات ذهنية ، تتصل بعالم الغيب : ذلك أن ثمرة التفكير الإنساني عرضة للخطأ في الذات الآلهية ؛ أو في الصفات الآلهية ، والخطأ في عالم الغيب على وجه العموم فيه خطورة كبيرة .

(١) الآن . وقد انتهينا من كتاب المتقذ ؛ نريد بتوفيق الله . أن نقدم هذه الكلمة الختامية هدية لروح الإمام الغزالي ، وهي بمثابة تلخيص للنهج الذي ينبغي أن يسلكه كل من يريد المعرفة ، في عالم ما وراء الطبيعة ، سائراً على السراط المستقيم : سواء في ذلك هؤلاء الذين ، يريدونه في صورة سهلة المأخذ ؛ قريبة المتناول ؛ فيلتزمون الإلتباع ؛ ويتبعون عن المتشابه ، والذين يريدونه كشفاً وبصيرة وإلهاماً : فيسيرون في طريق النور إلى نهايته .

وهذه الكلمة : إما مستمدة من الغزالي مباشرة ، وإما معبرة عن اتجاهه . وهي ، على أي وضع ، صورة مصغرة للاتجاه العام للصوفية على وجه العموم .

وما دام الأمر كذلك . فإن الطريق المستقيم ، أن لا ينشأ بجوار النص المقدس اختراع عقلي يتصل بما وراء الطبيعة هو عرضة للخطأ لا محالة . التسليم ، للنص المقدس هو المبدأ السليم ، عند ذوى العقول الحكيمة ، وقد حدث مرة . أن أخذ سقراط ، ورفقاؤه ، يتحدثون عن (خلود النفس) ويحاولون إقامة الأدلة على ذلك ، فلا يكاد يستقيم لهم الأمر في يقين جازم ، ثم «يسكت سقراط ، ويسكت الجميع . وبعد هنيهة يقول سيميئاس : العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ، تمتنع أو عسير جداً في هذه الحياة ، ولسكن من الجبن اليأس من البحث ، قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ، فيجب إما الاستيناق من الحق ، وإما - إن امتنع ذلك - استكشاف الدليل الأقوى ، والتذرع به في إجتياز الحياة ، كما يخاطر المرء بقطع البحر ، على لوح من خشب ، ما دام لا سنبل لنا إلى مركب آمن ، وآمن ، أعنى إلى وحى إلهي^(١) .

المركب الآمن ، والآمن في رأى سيميئاس ، هو الوحى الإلهي ، ومعنى ذلك في وضوح تام : أنه لو كان لدى سيميئاس ، أو لو كان في العهد اليوناني نص مقدس صحيح ، لاستسلم إليه الجميع دون نقاش ، أو جدل . أما استعمال العقل في عالم الغيب ، فإنه في أغلب الأحيان ، مخاطرة لقطع البحر على لوح من خشب . وهيهات أن ينجو من يفعل ذلك .

واستسلم المسلمون الأوائل للنص المقدس : متبعين في ذلك الطريق القويم ، ومضى الصدر الأول للإسلام دون جدال في العقيدة ، ودون محاولة عقلية لاختراع ما وراء الطبيعة ، أو بتعبير آخر ، دون محاولة عقلية ، لتحديد ما لا يحد وتقييد ما لا يقيد .

(١) يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية .

وكان أول انحراف ، منظم ، قوى عن هذا المبدأ السليم ، هو الطريق الذى سلكه « واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ومدرستهما ، .
إنهما لم يتعمدا انحرافاً ولا خروجاً عن الطريق السوى ، وإنما خُيِّل إليهما أن عملهما ، خدمة للإسلام ، وخدمة للمسلمين .

ولكنهما بعملهما ، حكما العقل فى الدين ، بل لقد أخذوا وأخذت مدرستهما فى وضع تشريع ، يفرض على الله سبحانه وتعالى ، الفروض ، ويوجب عليه الواجبات ؛ لقد أخذوا يوجبان عليه ، ويمنعان عليه فهو سبحانه ، يجب عليه أن يفعل كذا ؛ ويجب عليه أن لا يفعل كذا ، وتحكم عقليهما فى الدين ، وفى الله تعالى .

ولأن عقل كل إنسان ، يختلف عن عقل الآخر ، فقد انقسمت المدرسة الاعزالية إلى مدارس ، ومذاهب لا تكاد تحصر .
وكانت النتيجة ، لتحكيم العقل فى الدين ، أن بدأ الافتراق والاختلاف العقدى فى البيئة الإسلامية .

لم يستسلم المعتزلة ، استسلام المؤمن المعترف بعجزه وقصوره تجاه الذات الألهية ، كما فعل الصدر الأول . وإنما وثقوا بعقولهم الثقة المطلقة . فكان من نتيجة ذلك الشقاق والتفرق .

وحيثما بدأ المسلمون ، فى أوائل « العصر العباسى » ، يترجمون الثقافات الأجنبية ، فإنهم لم يستسيغوا ترجمة الإلهيات والأخلاق ، ذلك أن يقينهم المطلق فى نصهم المقدس ، جعلهم يستهينون بكل ما عساه ، مما يتصل بما « وراء الطبيعة أو بالأخلاق ، وكان موقفهم فى ذلك سلماً كل السلامة فإن كل فكرة ، أو كل رأى متصل بما وراء الطبيعة ، أو بالأخلاق ، يخالف ما أتى به الوحى ، إما أن يكون خرافة ، أو ضلالاً عقلياً ، والحياة الجادة ، لا تستسيغ إنفاق الزمن ، فى دراسة خرافات ، أو أضاليل عقلية .

ولسكن المأمون - ومن ورثه المعتزلة - فعلوا ما امتنع جمهور المسلمين عن

فعله ، فترجموا إلهيات اليونان ، وأخلاق اليونان . فأصبح بذلك البحث العقلي ، أو الاختراع العقلي ، أو الابتداع العقلي في الدين ، هوية عقلية ، يجرى ورائها الكشيريون .

ونشأ الفلاسفة :

وأخضع الفلاسفة كل شيء ، لعقولهم ، وأخذوا يرسمون القواعد ، ويقيمون الأدلة ، ويبتعدون كثيراً أو قليلاً عما فهمه المسلمون عن رسولهم وعما استشعروه من الروح العامة للإسلام ، على وجه العموم .

والواقع أن إقامة ما وراء المادة أو الأخلاق على العقل . إنما هو شهوة أو هوى ، ذلك أنه منذ ابتداء العهد اليوناني ، وهذا النهج من البحث في إخفاق متتابع ، وفي فشل مستمر ، وفي تناقض ملازم ، ورجاله يناقض بعضهم البعض ، ويهدم كل ما بناه الآخرون ، وعلى توالي الزمن ، تنهار الآراء ، وتنشأ آراء أخرى لا تلبث أن تنهار ، وهكذا دواليك .

ومع رؤية كل باحث عقلي ، لهذه النتائج المهاراة باستمرار : فإن ذلك لم يقيم عظمة واعتباراً في نظرهم ، وإنما استمروا على الطريقة العقلية ، رغم رؤيتهم في وضوح مآل أبحاث سابقهم المتهافة .

ونشأ الإمام الغزالي ، والعالم الإسلامي يمجج ويضطرب ، في ضلال الجري وراء ابتداع المذاهب العقلية في الدين وكان من توفيق الله ، أن حجة الإسلام ، قد منح طبيعة طلعة ؛ وذهناً ثاقباً ؛ وتفكيراً حكيماً ، وتربية دينية سليمة منذ نشأته الأولى ، وأخذ تفكره يجرى في جميع المناحي الدينية ؛ فلاحظ أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب

على كثرة الفرق ، وتباين الطرق ، بحر عميق ، غرق فيه الأكتيون ، وما نجا منه إلا الأقلون .

فاقتحم لجة هذا البحر العميق ، وحاض غمرته ، خوض الجسور ، لا خوض الجبان الخدور ، وتوغل في كل مظلمة ، وتهجم على كل مشكلة ، وتفتح كل ورطة ، وتفحص عن عقيدة كل فرقة وكان نتيجة ذلك كله أن فقد ثقته في العلم ، ووجد نفسه عاطلا عن علم يقيني ، فأراد أن يبدأ من البساط ، وأن يجعل أساسه قويا متيناً حتى ينتهي إلى اليقين المطلق فيما يعلم .

ولكنه اختبر الثقة في المحسوسات ، فلم تسمح نفسه بالتسليم باليقين فيها ، وامتحن الثقة بالعقلية ، فانهارت العقلية .

وَمَرَّ إِذْ نَ الْإِمَامُ الْغَزَالِي ، بتجربة قاسية : هي تجربة الشك في الحسيات والعقلية .

واستمر على ذلك شهرين ، هو فيها على مذهب السفسطة « بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال » .

ثم شفاه الله تعالى من ذلك المرض « وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقاً بها على أمن و يقين .

ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف .

خرج الإمام الغزالي ، من هذه التجربة على نور من ربه ، وعلى بصيرة من أمره : فحاول ما استطاع أن يرسم الطريق الصحيح للشغوفين بالمعرفة ، والمتطلعين إلى الهداية ، والمستشرفين إلى العلم بالملا الأعلى .

لقد أراد أن يرسم الطريق ، الذي يرضى أتباعه الله ورسوله .

أراد أن يرسمه ، للحيارى ، والمتطلعين إلى الهدى ، وللشاكين الآملين في اليقين ، وللمسترشدين الذين يريدون أن يستمسكوا بجبل الله المتين .

راد أن يرسم هذا الطريق ، بعد تجربته التي مر بها ، فرسمه في ثقة
المجرب ، وفي أحكام الحبير .

إن الأساس الخادع ، الذي لا يعدوا أن يكون هوة عميقة يتردى فيها
السكثيون ، إنما هو إرادة تشييد « ما وراء الطبيعة على العقل » — فإ العقل
بالنسبة إلى ما وراء الطبيعة إلا كالسراب الخادع ، الذي غرر بكثير من
النظاميين إلى معرفة ميدان الغيب .

ثم إن هذا الاتجاه خطر على الدين نفسه ، إنه من جانب : انصراف عن
النص الألهي إلى العقل ، ومن جانب آخر : إقامة مصدر لمعرفة الغيب غير النبوة .
وفي ذلك لا شك صرف للناس ، عن التأمل في النص المقدس كمصدر
لمعرفة الألهيات وفيه كذلك تقليل شأن النبوة .

وهجم الإمام الغزالي ، على هذا النهج ، هجوماً عنيفاً ، ولم يفتر قط عن
مهاجمته منذ أن ألف كتابه القيم « تهافت الفلاسفة » ، إلى أن انتهت به الحياة .
لقد كان كتابه « تهافت الفلاسفة » محاولة موفقه كل التوفيق ، جريئة
كل الجرأة ، طريقة كل الطرافة ، وما كان المقصد الأول ، والهدف
الأساسي لهجومه ، هدم الآراء في نفسها ، فبعضها صحيح ، موافق للدين ،
ومع ذلك فقد هدم الإمام الغزالي ، المنهج العقلي ، الذي استندت إليه
هذه الآراء .

« خلود النفس » ، مثلاً . رأى يقول به الغزالي ، ويقول به الفلاسفة ،
ولكن الإمام الغزالي ، حمل معوله على طريقة الفلاسفة في إثبات خلود
النفس ، وهدم أدلتهم ، وضرب بمعوله في استدلالاتهم على — خلود
النفس — فإنهارت وتهافتت ومع ذلك ، فقد كان هو مؤمناً بهذا الخلود .

إنه لم يلتزم في هذا الكتاب «إلا تكديراً مذهبهم ، والتغيير في وجه أدلتهم بما يبين تهاافتهم» .

ومقصوده . . تنبيه من حسن اعتقاده ، في الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم تقيمة عن التناقض ببيان وجوه تهاافتهم .

ويقول : «أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم ، إلا دخول مطالب منكر ، لا دخوع مدع ، مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه ، مقطوعاً بالزمامات مختلفة .

فالزمام : تارة مذهب المعتزلة .

وأخرى : مذهب الكرامية .

وطورا : مذهب الواقفية .

ولا انتفض ذابا عن مذهب مخصوص .

ويقول الأستاذ «بلاسيوس» بحق «إن الغزالي حينما سمي كتابه «تهاافت الفلاسفة» : كان يريد أن يمثل لنا ، أن العقل الإنساني ، يبحث عن الحقيقة ، ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً يشبه نور الحقيقة ، انخدع به ، فرمى بنفسه عليه وتهاافت فيه ؛ ولكنه يخطئ^١ مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة ، فهلك كما يهلك البعوض .

فكان الغزالي ، يريد أن يقول : إن الفلاسفة ، خدعوا بأشياء ، أسرعوا إليها بلا إعمال روية «فتهافتوا ، وهلكوا الهلاك الأبدي^(١)» .

(والمعرفة) عند الفلاسفة العقليين . مصدرها ، إذن العقل ، والعقل

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده .

وحده ، بيد أن الإمام الغزالي ، يقول عن تجربة : إن وراء طور العقل ،
طوراً آخر ، تنفتح فيه عين أخرى ، يهصر بها الغيب ، وما سيكون في
المستقبل ، وأمور أخرى ، العقل معزول عنها ، كعزل قوة التمييز . عن إدراك
المعقولات ؛ وكعزل قوة الحس عن إدراكات التمييز (١) .

هناك إذن البصيرة ، وميدانها الذي يتكشف لها ، إنما هو الغيب .
وإذا تساءلنا ، مع الإمام الغزالي عن مراتب المعرفة بالغيب ، التي هي
الإيمان ، فإننا نجدّه يحدد للإيمان ثلاث مراتب .

المرتبة الأولى : « إيمان العوام » ، وهو إيمان التقليد المحض .

المرتبة الثانية : « إيمان المتكلمين » ، وهو مزوج بنوع استدلال ؛

ودرجته حسبما يرى الإمام قريبة من درجة العوام .

والمرتبة الثالثة : « إيمان العارفين » ، وهو المشاهد بنور اليقين .

ولا شأن لنا ، في حديثنا هذا بالمرتبة الأولى ، أما المرتبة الثانية : وهي

مرتبة المتكلمين ، وهم يدعون ، أنهم أهل الرأي والنظر ، وأرباب البحث

والاستدلال ، فإنهم يشاركون الفلاسفة بهذا الاعتبار ، في نهجهم البحثي .

فالإمام الغزالي ، يرى أن درجتهم قريبة من درجة العوام .

وهو من جانب آخر ، لا يرى في نهج المتكلمين ما يؤدي ، إلى كشف

الحقائق ، إنه يقول حرفياً عن علم الكلام : « أما منفعتة فقد يظن أن فائدته

كشف الحقائق ومعرفة ما هي عليه ، وهيهات ، فليس في الكلام

وفاء بهذا المنطلب الشريف ، ولعل التخليط والتضليل فيه أكثر من

الكشف والتعريف .

وهذا إذا سمعته من محدث ، أو حشوى ، ربما خطر ببالك أن الناس

أعداء ما جهلوا ،

(١) المنقذ من الضلال .

فاسمع هذا من خبر الكلام ، ثم قللاه بعد حقيقة الخبرة ، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق ، في علوم آخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه المسدود^(١) . ويرى في موضع آخر ، أن المتكلم ، لا يزيد عن العامى إلا في صنعة الكلام ، ولأجله سميت صناعته «كلاماً»^(٢) .

أما المرتبة العليا : فإنها الهدف الاسمى وهي مقصد الطالبين ، ومطمح نظر الصديقيين . إنها مشاهدة روحية ، إنها يقين مطلق .

مشاهدة ماذا ؟

ويقين فى ماذا ؟

ماهو الموضوع ؟

إنه إذا أردنا الإجمال : الغيب .

أما إذا أردنا شيئاً من التفصيل ، فإنه أمور كثيرة ، كان يسمع العارف من قبل أسماءها : فيتوهم لها معانٍ مجملة غير متضحة ، فتمتضح إذ ذاك ، حتى تحصل المعرفة ، الحقيقية بالله سبحانه .

وبصفاته الباطنيات ، التامات ، وبأفعاله ، وبحكمته فى خلق الدنيا والآخرة ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا .

والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ، ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة .

وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحي إليهم .

والمعرفة بمسكوت السموات والأرض .

(١) ص ١٦٨ من الإحياء . (٢) إحياء ص ٨٧ .

ومعرفة القلب ، وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فية ، ومعرفة الفرق بين ملة الملك ، وملة الشيطان .

ومعرفة الآخرة ، والجنة والنار ، وعذاب القبر ، والصراط ، والميزان والحساب ، ومعنى قوله تعالى : « وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

ومعنى لقاء الله عز وجل ، والنظر إلى وجهه الكريم ، ومعنى القرب منه ، والنزول في جواره ومعنى حصول السعادة ، بموافقة الملائك الأعلى ، ومقارنة الملائكة والنيبين .

ومعنى تفاوت أهل الجنان ، حتى يرى بعضهم البعض ، كما يرى الكوكب الدرسي في السماء

إلى غير ذلك مما يطول تفصيله .

ذلك بعض موضوع الغيب الذي يتطلع إلى معرفته - دون جدوى - المتكلمون والفلاسفة ، ولأنهم لم يتخذوا إليه السبيل الصحيح : اختلفوا فيه . لقد اختلفوا في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى : فبعضهم ، يرى أن جميع ذلك أمثلة ، وأن الذي ، أعده الله لعباده الصالحين : « ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء . وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة ، وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها .

وكذلك يرى بعضهم ، أن منتهى معرفة الله عز وجل : الاعتراف بالعجز عن معرفته .

وبعضهم يدعى ، أموراً عظيمة في المعرفة بالله عز وجل .
وبعضهم . يقول : حمد معرفة الله عز وجل ، ما انتهى إليه اعتقاد

جميع العوام : وهو أنه موجود ، عالم ، قادر ، سميع ، بصير ، متكلم .
اختلف الناس هذا الاختلاف : لأنهم لم يتبعوا النهج الصحيح ،
في معرفة الغيب وهذا النهج الصحيح ، إنما هو جلاء البصيرة .
ولو اتبعوا الكشف ، عن البصيرة ، لارتفع الغطاء حتى تتضح
للإنسان جليلة الحق في هذه الأمور اوضاحاً يجرى مجرى العيان الذي
لا يشك فيه .
وهذا يمكن في جوهر الإنسان (١) .

أهذا يمكن حقاً في جوهر الإنسان ؟ .
إنها دعوى من الإمام الغزالي ، نحتاج إلى إثبات .
وهي دعوى ، ينكرها الكثيرون .
ولكن الإمام الغزالي ، يرى أن الدليل القاطع ، الذي لا يقدر أحد
على جرده أمران .
أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز
ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة : فلم يفارق النوم اليقظة
إلا في ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسوسات ، فكم من مستيقظ
غائض ، لا يسمع ولا يبصر ، لاشتغاله بنفسه .
الثاني : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الغيب وأمر
في المستقبل .

وإذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، جاز لغيره ؛ إذ النبي : عبارة
عن شخص كوشف ، بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل

أن يكون ، في الوجود ، شخص مكاشف ، بالحقائق ، ولا يشتغل بإصلاح الخلق وهذا لا يسمى « نبياً » بل يسمى « ولياً » .

فمن آمن بالأنبياء ، وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه ، لا محالة ، أن يقر بالبصيرة ، أو بتعبير آخر ، يقر بباب للقلب ، ينفتح على عالم المسكوت ، هو باب الإلهام ، والنقش في الروع ، والوحي^(١) .

والإمام الغزالي . يتشبه بالرؤيا ، كبرهان ، ودليل ، على أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل ، ويردد ذلك في كثير من كتبه ، إنه يتحدث في « المنقذ » عن النبوة فيقول « وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه ، بأن أعطاهم ، انموذجا من خاصية النبوة ، وهو النوم ؛ إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحا ، وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجر به الإنسان من نفسه ، وقيل له :

إن من الناس من يسقط مغشيا عليه كالميت ، ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره ، فيدرك الغيب ، لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحساسة ، أسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لا يدركها مع ركودها أولى وأحق .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة^(٢) .

ولكن الغزالي ، لا يكتفي بهذين الوجهين من الاستدلال ، بل يأتي بشواهد الشرع ، ويذكر التجارب والحكايات .

أما الشواهد ، فيما يرى ، فهي قوله تعالى :

(والذين جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) .

(١) إحياء علوم الدين .

(٢) المنقذ من الضلال .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وقوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) قيل نوراً يفرق

به بين الحق ، والباطل ، ويخرج به من الشبهات .

وسئل ﷺ عن قول الله تعالى :

« أفمن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ الْإِسْلَامَ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » .

ما هذا الشرح ؟

فقال : هو التوسعة : إن النور ، إذا قُذِفَ به في القلب ، اتسع له

الصدر وانشرح .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« إنَّ مِنْ أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ ، وَمُعَلِّمِينَ ، وَمُكَلِّمِينَ ، وَإِنْ عَمِرَ مِنْهُمْ » .

والمحدث هو الملتهم ، والملمم ، هو الذي انكشف له الحق ، في باطن

قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسوسات الخارجية .

والقرآن مصرح ، بأن التقوى « مفتاح الهداية ، والكشف » .

ولم يكن علم الخضر عليه السلام ، علماً حسيماً أو عقلياً ، وإنما هو العلم

الرباني ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

« وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا » (١) .

كيف يتفجر ، العلم بالغيب من داخل القلب ؟

كيف تنجلي البصيرة ؟

(١) من الإحياء ص ٤١ — ٤٣ .

كيف يتأتى الكشف والإلهام ، والنفث في الروح ؟
كيف تتأتى معرفة الغيب ، معرفة مباشرة ؟
إن الطريق إلى ذلك ، إنما هو تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ،
وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنهه الهمة على الله تعالى .
ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى ، لقلب عبده ، والمتكفل له
بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب ، فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ،
وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب
حجاب العزة بلطف الرحمة ، والآلات فيه حقائق الأمور الإلهية .
فليس على العبد إلا الاستعداد ، بالتصفية المجردة وإحضار الهمة ، مع
الإرادة الصادقة والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله
تعالى من الرحمة .

فالأنبياء ، والأولياء ، انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ،
لا بالتعلم والدراسة ، والكتابة للكتب . بل بالزهد في الدنيا والتبرى من
علائقها ، تفرغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنهه الهمة على الله تعالى ، (فمن
كان لله كان الله له) ، وهو بفعله هذا يصير متعرضاً لنفحات رحمة الله .
وليس له اختيار في استجلاب هذه النفحات .

وليس له إلا الانتظار ، لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحتها على الأنبياء
والأولياء بهذه الطريقة .

وإذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت ملاحظته ، تلمع لوامع
الحق في قلبه ، ويرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى : فينكشف له
الغيب ، ويحصل له اليقين (١) .

(١) الإحياء ص ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ .

هذا النهج الذي رسمه الغزالي لمعرفة الغيب ، له آثار عميقة ، بالنسبة للفرد في خاصية نفسه ، وبالنسبة للمجتمع ، وبالنسبة للدين .

وإننا لنختتم هذا البحث بتوضيح بعض الآثار التي كانت لهذا النهج ، والتي يبينها الدكتور محمد إقبال في كتابه : «تجديد التفكير الديني في الإسلام» . يقول الدكتور إقبال :

« على أنه لا سبيل إلى إنكار : أن الدعوة التي نهض لها الغزالي تكاد تكون دعوة للتدشير بمبدأ جديد ، مثلها في ذلك مثل الدعوة التي قام بها « كانت ، في ألمانيا في القرن الثالث عشر :

في ألمانيا ظهر المذهب العقلي لأول عهده حليفاً للدين ، ولكن سرعان ما تبين أن جانب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حسياً ، فكان الطريق الوحيد إذن : أن تمحي العقيدة الدينية من سجل المقدسات .

وقد جاء مع محور العقيدة مذهب المنفعة في فلسفة الأخلاق ، ولذا يمكن المذهب العقلي من سيادة الإلحاد .

تلك كانت الحال في ألمانيا ، عندما ظهر « كانت ، وكشف كتابه : «العقل الخالص» ، عن قصور العقل الإنساني ، فهدم بذلك ما بناه أصحاب المذهب العقلي من قبل ، وصدق عليه القول بأنه كان أجل نعم الله على وطنه .

وإن التشكك الفلسفي الذي اصطنعه الغزالي ، على تطرفه بعض الشيء قد انتهى إلى النتيجة نفسها في العالم الإسلامي إذا قضى ذلك على المذهب العقلي ، الذي كان موضع الزهو ، على الرغم من ضخامته ، وهو المذهب الذي سار في نفس الاتجاه الذي اتجه إليه المذهب العقلي في ألمانيا قبل ظهور

«كانت» غير . أن هناك فارقا هاما بين «الغزالي» و«كانت» ، فإن «كانت»
تمشى مع مبادئه تمشياً لم يستطع أن يثبت أن معرفة الله ممكنة .

أما الغزالي فعندما خاب رجاؤه في النسكر التحليل ، ولى وجهه شطر
الرياضة الصوفية ، وألنى فيها مكانا للدين قائماً بنفسه .

وبهذه الطريقة ، وفقَّ لأن جعل للدين حق الوجود مستقلاً عن العلم ،
وعن الفلسفة الميتافيزيقية .

والله ولى التوفيق ؟

فهرس

صفحة	الموضوع
٥ - ٣	تصدير الطبعة الأولى
٧	مقاسمة في قضية التصوف
١٨ - ٨	(١) البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث
٢٤ - ١٩	(٢) في وسيلة المعرفة
٣١ - ٢٥	(٣) حول كلمة : تصوف
٣٦ - ٣٢	(٤) التصوف
٤٧ - ٣٧	(٥) من أسباب التصوف الشك
٥١ - ٤٨	(٦) الشك ومدارج السالكين
٥٦ - ٥٢	(٧) التصوف والدين الإسلامي
٦٢ - ٥٧	(٨) التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية (١)
٦٧ - ٦٣	(٩) التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية (٢)
٨٢ - ٦٨	(١٠) التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية (٣)
١١١ - ٨٣	(١١) قضية التصوف
١١٦ - ١١٢	مشكلة المعرفة الصوفية

المنقذ

١٢٧ - ١١٨	توطئة
١٣٠ - ١٢٨	مداخل السفسطة وجمود العلوم
١٣١	أصناف الطالبين
١٣٧ - ١٣٢	(١) علم الكلام مقصوده وحاصله
١٣٩ - ١٣٨	(٢) الفلسفة
١٤٧ - ١٤٠	أصناف الفلاسفة
١٦٢ - ١٤٨	أقسام علومهم
١٧١ - ١٦٣	(٣) مذهب التعليم وغائلته
١٧٩ - ١٧٢	(٤) طرق الصوفية
١٨٤ - ١٨٠	حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها
١٩٧ - ١٨٥	سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه
٢١٣ - ١٩٨	خاتمة الطريق

سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

أسماء الكتب التي ظهرت من هذه السلسلة :

- ١ - المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي (الطبعة الثالثة من يدة ومنقحة)
مع مقدمة مستفيضة عن قضية التصوف للأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود
رئيس قسم الفلسفة بجامعة الأزهر
- ٢ - فلسفة ابن طفيل، ورسالته «حی بن يقطان»
للأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود
- ٣ - الفيلسوف المفتري عليه « ابن رشد »
للأستاذ الدكتور محمود قاسم
- ٤ - التصوف عند ابن سینا
للأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود
- ٥ - التفكيك الفلسفي في الإسلام
للأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود
- ٦ - مناهج الأدلة في عقائد أهل الملة لابن رشد
مع مقدمة في نقد مدارس علم الكلام
للأستاذ الدكتور محمود قاسم
- ٧ - جمال الدين الأفغاني « حياته وفلسفته »
للأستاذ الدكتور محمود قاسم
- ٨ - الإسلام بين أمسه وغده
للأستاذ الدكتور محمود قاسم
- ٩ - كتاب الملل والنحل للإمام الشهرستاني
(القسم الأول)
تخريج الأستاذ محمد ابن فتح الله بدران
- ١٠ - كتاب الملل والنحل للإمام الشهرستاني
(القسم الثاني)
تخريج الأستاذ محمد ابن فتح الله بدران
- ١١ - أصول الفلسفة الاشرافية عند شهاب الدين السهروردي
للدكتور محمد علي أبو ريان